كليـــــة الآداب والـــلّـــغـــات
Faculty of Letters and Languages
جــامعة 8 مــاي 1945 قـــالــمة
University 8 May 1945 – *Guelma*

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليـــــم العالـــــي والبحث العلمــــــي
Ministère de L'enseignement Supérieur Et de la recherche scientifique

Université 8 Mai 1945 Guelma
جامعة 8 ماي 1945 قالمة

Faculté: des lettres et des langues
كليّـــة الآداب و اللغـــات

قسم اللغة والأدب العـربي

محاضرات في مقياس المدارس النحوية

موجّهة لطلبة السنة الثالثة ليسانس (ل.م.د)

تخصص: لسانيات عامة

إعداد الأستاذة: نبيلة قرينـــي

الموسم الجامعي: 2019 – 2020

وحدة التّعليم: الأساسية

مقياس: المدارس النّحوية

الرصيد : 05

المعامل: 03

أهداف التّعليم:

- التّحكم في مادة المقياس مشافهة وتحريرا.
- التّمكن من المعارف العلمية المتعلقة بالقياس.
- الوصول بالطالب إلى القدرة على استثمار معارفه في المجال.

المعارف المسبقة المطلوبة.

أن يكون الطّالب قادرا على استيعاب المادة المقدمة، وكذا التّحكم في تكنولوجيا الإعلام والاتّصال للحصول على المعارف.

محتوى المادة:

السداسي الخامس **وحدة التّعليم الأساسية**		**مادة النّص:** **المدارس النّحوية**	**المعامل: 03**	**الرّصيد: 05**
دروس			**أعمال موجهة**	
01	مفاهيم تأسيسية: المذهب، الاتّجاه، المدرسة النّحوية		قراءة كتاب في الموضوع	
02	أسباب ظهور المدارس النّحوية: السّياسية، المعرفية، المذهبية.		قراءة في كتاب	
03	مصادر المدارس النّحوية: القرآن، الشّعر		نصوص دراستها وتحليلها	
04	مناهج المدارس النّحوية العربية القديمة: الاختلاف، التّخريج		قراءة في كتاب	
05	المدارس النّحوية في المشرق والمغرب العربيين: التّقسيم الجغرافي والسّياسي		قراءة في كتاب	
06	المدرسة البصرية: منهجها وأعلامها		الكتاب لسيبويه والمقتضب للمبرد	
07	مدرسة الكوفة: منهجها وأعلامها		كتاب مجالس ثعلب، معاني القرآن للفراء، ...	
08	المدرسة البغدادية وأعلامها		أبو علي الفارسي ومؤلفاته، ابن جني ومؤلفاته	
09	الاختلاف النّحوي بين مدارس النّحو 1		الإنصاف لابن الأنباري، والتّبيين في إعراب القرآن للعكبري	
10	الاختلاف النّحوي بين مدارس النّحو 2		مسائل خلافية في النّحو	
11	المدرسة النّحوية الأندلسية والمغربية 1		ابن مالك، ابن عصفور...	
12	المدرسة النّحوية الأندلسية والمغربية 2		أبو حيان النّحوي، ابن الخشاب...	
13	الاختلافات النّحوية في المنظومات		شروح المنظومات النّحوية: ابن معطي	
14	الاختلافات النّحوية في المتون		شروح المنظومات النّحوية: ابن مالك	

المحاضرة 1:

مفاهيم تأسيسية "المذهب، الاتجاه، المدرسة"

المحاضرة الأولى: مفاهيم تأسيسية (المذهب، الاتّجاه، المدرسة)

تمهيد:

يعدّ النحو العربي صرحًا عظيمًا، مكتمل الأجزاء، تحامى تأصيل قواعده أرباب كثر، تعاقبوا أفرادًا وجماعاتٍ في إرساء هرمه بدءًا بأبي الأسود الدؤلي (69هـ) -على اعتبار أنه أول نحوي عربي باتفاق أكثر الدارسين قديمًا وحديثًا-حتى أزمان غير بعيدة.

وعلى الرغم من اتحاد غاية النحويين وهي التقعيد للغة العربية وتأصيل أحكامها على أسس منهجية سليمة؛ فقد تعددت اتجاهاتهم وتنوّعت مذاهبهم بما قد يحيل ذهن المبتدئ على أن لكل إقليم جغرافي في الأمة الإسلامية مذهبًا نحويًّا متفرّدًا.

والصواب أن ذلك لم يكن، وإنما اشتهرت من تلك الاتجاهات والمذاهب أربعة: المذهب البصري، والمذهب الكوفي، والبغدادي، والأندلسي، ولا نعدم وجود جهود نحوية في بيئات أخرى من الأمة الإسلامية.

ولعلّه من الأنفع تنوير عقل الطالب المبتدئ في مجال "المدارس النحوية" بجوانب منهجية متعلقة بهذه الاتجاهات، نستهلها بالحديث عن المفاهيم التأسيسية للمقياس.

أولا: اصطلاحات ومفاهيم:

1-مفهوم المذهب:

أ/ لغة:

المذهب: مصدر ميمي يطلق على الطَّرِيقِ، ومَكَان الذَّهَاب وزَمَانِه، والجمع: مذاهب، وذَهَب به، وأَذْهَبَ غَيْرَهُ: أزاله.

ويُقال: ذَهَب إلى قَوْلِ فلان: أَخَذَ به، وذَهَبَ مَذْهَبَ فُلَان: قَصَدَ قَصْدَه وطَرِيقَه، وذَهَب في الدِّين مذهبًا: رَأَى فيه رأيًّا.

والمِذْهَبُ: الطَّرِيقَة، والمعتقد الذي يذهب إليه، ويُقال: مَا يُدْرَى لَهُ مَذْهَب. [1]

ب/ اصطلاحا:

إذا أردنا التّأصيل للفظ "المذهب" مصطلحًا، مَثُل توًّا أمامنا " المذهب الفقهي" على اعتبار أنّه ظهر في علم الفقه وارتبط به.

(1) مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوجيز، المطابع الأميرية، مصر، ط1998، ص: 247، مادة (ذ ه ب).

قال الحطاب: «المذهب لغة: الطّريق، ومكان الذهاب، ثمّ صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية».

فإذا قلنا مثلا: "مذهب مالك" أو "المذهب الشافعي" أو غيرهما فإننا نعني مجموعة الأحكام والآراء الفقهية التي قال بها كل منهما، وتابعه عليها مجموعة من الناس والتزموا بها وطبقوها. (1)

ثمّ أخذ هذا المصطلح طريقه إلى العلوم عامة، ومنها النّحو، وصار دالا على: «مجموعة من الآراء والنّظريات العلمية والفلسفية، ارتبط بعضها ببعض ارتباطا يجعلها وحدة منسَّقة». (2)

ثانيا: مفهوم الاتّجاه

أ/ لغة:

الاتّجاه: مصدر الفعل "اِتَّجَهَ"، وهو مزيد من مادة (وجه) بالهمزة والتاء، والأصل فيه: اِوْتَجَه، ثم أُبْدِلَت الواو تاء وأُدْغِمت فيها، فكان: اتَّجّه.

يقال: اتّجَه إليه: قَصَدَه، وأَقْبَل عَلَيْه، واتَّجَه شَمَال البِلَاد: تَوَجَّه إِلَيْهَا، واتّجَهَ لَهُ رَأْيٌ: أي: سَنَحَ، وعَرَض.

ومن معاني الكلمة:

اخْتَرْتُ اتّجاها علميا: أي مَسَارًا.

تَبَنَّى اتّجَاهًا سِيَاسِيًّا معروفًا: أي مَالَ إِلَيْه. (3)

ب/ اصطلاحا:

الاتّجاه في النّحو لا يكاد يختلف عن المذهب، أو الطّريق غير أنّ الاتّجاه قد يكون في المذهب الواحد أو المدرسة الواحدة، لأنّه لا يرقى إلى معنى المدرسة؛ فقد يكون في المدرسة الواحدة عدّة اتّجاهات، من ذلك أنه يقال: إنّه قد ظهر في تاريخ المدرسة البصرية منذ زمن مبكر اتجاهان: اتجاه عقلي: يغلّب العقل على النقل بدأ مع عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (117هـ) وهو الذي استمّر سمة مميّزة لها، واتجاه نقلي: يغلّب النقل على العقل، برز مع أبي عمرو بن العلاء (154هـ)، ولكنه لم يكتب له الاستمرار. (4)

فكأن الاتجاه مبدأ للمذهب، فمتى استمر وتطور صار مذهبًا.

ثالثا: مفهوم المدرسة

---

(1) ينظر: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، دار الأمل، إربد، الأردن، ط3، 2001، ص:14.

(2) مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوجيز، ص:247، مادة (ذ هـ ب).

(3) مر. ن، ص: 661، مادة (و ج هـ).

(4) ينظر: تمام حسّان: الأصول "دراسة إبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي"، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1991، ص: 35، 37.

أ/ لغة:

المدرسة اسم مكان من الفعل "دَرَسَ" ويأتي في اللّغة بمعانٍ منها:

دَرَسَ دَرْسًا بمعنى: عفَا وذهب أثره، ودَرَسه: تَقَادم عَهْدُه، ودَرَسَ الكتاب ونحوه درسًا ودِراسة: قَرَأَه، وأَقْبَل عليه ليَحْفَظَه وَيَفْهَمَه.

والمدرِّس: المعلّم، والمدرسة: مكان الدّرس والتّعليم. (1)

ب/ اصطلاحا:

أخذ مصطلح " المدرسة" طريقه إلى الفكر العربي حديثًا؛ ذلك أنّنا لا نظفر في معاجم المصطلحات التّراثية على تعريفها.

بل عرفت لفظة "مدرسة" على أنّها «كلمة تاريخية استعملها المسلمون في عصور حضارتهم، فكان من ذلك المدرسة النّظامية في بغداد، فالمدارس النّظامية في أمصار أخرى...وهذه المدارس مدارس حقيقية ينتسب إليها طلاب العلم فيدرسون العلوم المختلفة». (2)

وأمّا دلالتها الحديثة فمأخوذة من الفكر الغربي؛ إذ إنّ «الغربيين تجاوزوا في استعمال "المدرسة" المألوف المعروف، فكانت لديهم مثلا: المدرسة الكلاسيكية في الأدب والفن، والمدرسة الرومانتيكية، والمدرسة الرّمزية، والمدرسة الطبيعية... وغير هذا». (3)

وعلى هذا فمصطلح "مدرسة" ترجمة للفظ (école) الفرنسية ونظائرها من سائر اللّغات الغربية، وتحيل على ما يحيل عليه لفظ (المذهب)؛ إذ فالمدارس: مذاهب خاصة لها قواعدها وأصولها وأسسها الخاصة بها التي تختلف كل الاختلاف في أي منها عن الأخرى.

وقد أدرجت المعجمات الحديثة هذا المعنى المكتسب للمدرسة؛ فزيد في معانيها: «هي جماعة من الفلاسفة، والمفكرين أو الباحثين تعتنق مذهبًا معينا، أو تقول برأي مشترك». (4)

ثانيًا: تأصيل المصطلحات الثلاثة بين القدماء والمحدثين:

على الرغم من أقدمية علم النّحو، وتوالي أربابه وتعدّد اتّجاهاتهم فإنّ القدماء لم يفردوا الحديث عن هذه الاتّجاهات، وخصائصها المنهجية، وإن كانوا قد عرضوا لبعضها في ترجماتهم للنحويين.

---

(1) ينظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوجيز، ص:225، مادة (ذ ه ب).

(2) إبراهيم السامرائي: المدارس النحوية: أسطورة وواقع، دار الفكر، الإسكندرية، مصر، ط1، 1987، ص: 139.

(3) مر. ن، ص. ن.

(4) مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوجيز، ص: 225، مادة (ذ ه ب).

وأمّا في العصر الحديث فقد بدأ اتّجاه جديد في البحث في تاريخ النّحو وصلته بغيره من العلوم، وتبيان خصائصه وسمات اتّجاهاته. وكان المستشرقون أوّل من نبّه على ذلك وتبعهم العرب وكتبوا في نشأة النّحو وتاريخه.

وقد عبّر أصحاب كتب السّير والتّراجم التراثية عن أهل النّحو واتّجاهاتهم بأوصاف عديدة من مثل: أهل البصرة، وأهل الكوفة، وقول: البصريين والكوفيين، وغيرها، وما لفظوا "مدرسة" قطّ.

وتذكر الباحثة "خديجة الحديثي"[1] أنّ أوّل من يلقانا من القدماء ممّن عرض لتراجم النّحويين: محمد بن سلام الجمحي (231 هـ) الذي قال: «كان لأهل البصرة في العربية قدمة بالنّحو ولغات العرب والغريب عناية». [2]

وترجم بعدها لأبي الأسود الدؤلي، وعَدَّه مؤسّس علم العربية ولبعض من تلاه حتى الخليل، ولم ينسبهم إلى مدرسة، وإنّما عدّهم من أهل البصرة فقط.

وأعقب "الجمحي" عدد من القدماء ممّن ترجموا للنحويين منهم: ابن قتيبة الدينوري (276 هـ) في كتابه " المعارف"، غير أنّه لم يفرّق بين المشهورين من البصريين والكوفيين، ولم يذكرهم مقسّمين إلى نحاة ولغويين، أو إلى كوفيين وبصريين معتمدًا على شهرتهم، ولم يُسمِّهم بمذهب أو مدرسة، ولم ينسب منهم إلى البصرة أحدًا لكونهم معروفين زمنه، ولا سمّى المعروفين من نحاة الكوفة ولغوييها بالكوفيين، وإن حدّد بعض الأعلام غير المعروفين بأنّهم كوفيون مثل: أبي البلاد الكوفي. [3]

وجاء بعدها أبو الطّيب اللّغوي (351 هـ) وألّف كتاب" مراتب النّحويين" عارضًا أعلام النّحويين حسب الزّمن، معبّرًا عنهم بقول البصريين والكوفيين، بنسبتهم إلى بلدانهم، ولم يكن يعرّفهم-كما شأن من سبقه- باسم " المدرسة" أو المذهب".

ولعلّ أوّل من استخدم لفظ "المذهب" هو أبو بكر الزّبيدي (379 هـ) في كتابه (طبقات النّحويين واللّغويين)، وجاء ذلك في حديثه عن أبي موسى الحامض، قال: «كان بارعًا في اللّغة والنّحو على مذهب الكوفيين». [4]

وقال عن ابن كيسان: «وكان بصريًا كوفيًا يحفظ القولين، ويعرف المذهبين...». [5]

---

(1) ينظر: المدارس النحوية، ص: 07.

(2) ابن سلّام الجمحي: طبقات الشّعراء، (د. تح)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2001، ص29.

(3) ينظر: مر. س، ص: 08.

(4) طبقات النّحويين واللّغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 1973، ص152.

(5) مص. ن، ص: 153.

وقد تبعه في استعمال لفظ" مذهب" ابن النّديم (385 هـ) حين سمّى نحاة بغداد: «من خلط المذهبين...». [1]

وأمّا مصطلح "المدرسة" فلم يستخدمه القدماء، بل كان المعاصرون. ولعلّ أوّل من استخدمه هو المستشرق" (جوتولد فايل)، الذي عرّفها بأنّها: «الاشتراك في وجهة النّظر الذي يؤلف الجبهة العلميّة ويربط العلماء بعضهم ببعض في رأي واحد». وتابعه على ذلك المستشرق (كارل بروكلمان). [2]

واقتدى بهم في ذلك كثير من الدّارسين العرب، ووضعوا مؤلفات موسومة باصطلاح "المدارس".

ولعلّ أوّل من تبنى هذه التّسمية من العرب الأستاذ "مهدي المخزومي" في كتابه: "مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو"، وتوالت بعدها المؤلفات الموسومة بلفظ المدرسة من مثل: "المدارس النّحوية" لشوقي ضيف، و"المدارس النّحوية" لخديجة الحديثي، و"المدارس النحوية: أسطورة وواقع" لإبراهيم السامرائي، وما إلى ذلك.

كما كان "مهدي المخزومي" أوّل دارس عربي اجتهد في تعريف "المدرسة"؛ حيث قال عند كلامه عن الكسائي: «إن الكسائي بمنهجه وأساليب دراسته أسسّ مدرسة لها خصائصها ومميزاتها، فليست المدرسة إلّا أستاذًا مؤثرًا وتلاميذ متأثرين وقد اجتهدوا على تحقيق غرض واحدٍ، ونهجوا للوصول إليه منهجًا واحدًا». [3]

وتوالت اجتهادات الدّارسين في تعريف" المدرسة" وهي في عمومها لا تجاوز المعنى الذي تؤدّيه كلمة "مذهب" في الدّراسات الإسلاميّة.

ويمكن أن نعرّف المدرسة على أنّها: «مجموعة النّحاة الذين كوّنوا درسًا نحويًّا في بيئة معيّنة سواء أضمَّهم منهج موّحد خاص بهم له أسسه وأصوله وقواعده المعروفة المستقلة، أم كان مبنيًّا على منهج من سبقهم إلّا أنّهم استقروا في بيئة أخرى وتأثروا بظروف البيئة الجديدة بعض التّأثر». [4]

ويفهم من هذا أن اصطلاح "المدرسة" يقتضي الاشتراك في الأسس المنهجية وأهداف الدراسة، وسماتها، بما يفضي إلى وحدة النتائج المرجوة.

وعلى العموم فقد نشطت حركة التأليف في الاتجاهات النحوية العربية التراثية أيمّا نشاط وتعدّدت مراجعها، وهي في كلّ ذلك يتّخذ أربابها مواقف من المدارس النحوية بين إنكار وجودها وإثباتها، أو إثبات بعضها فحسب، على نحو ما سنفصّل فيه.

---

(1) الفهرست، تح: مصطفى الشويلمي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1985، ص347.

(2) ينظر: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص: 15.

(3) مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في اللغة والنحو، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص: 120.

(4) خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص: 13.

ثالثًا: المدارس النحوية بين الإثبات والإنكار:

على الرّغم من تبني الدّارسين المحدثين من مستشرقين وعرب مصطلح "المدرسة"، فقد اختلفوا في إثبات وجود مدارس متنوعة تحمل هذه الأسماء، وانقسموا في ذلك فرقًا، ويمكن إيجاز قناعاتهم في الآتي:

1/ الفريق الأوّل: وأقرّ أصحابه وجود مدرسة نحوية واحدة في تاريخ النّحو العربي هي المدرسة البصرية فحسب، وأنكروا وجود غيرها من المدارس بما في ذلك المدرسة الكوفية، فلا وجود لمدرسة بغدادية حسبهم ولا أندلسية ولا ما شابه ذلك.

وكان المستشرق "جوتولد فايل" أوّل من قال بذلك؛ إذ تشكّك في قيام مدرسة كوفية، ومن ثمّ لا يرى وجود مدرسة بغدادية، لأنّها ليست إلّا امتزاجًا للمدرستين البصرية والكوفية. (1)

وقد تبعه في ذلك المترجم لثعلب من الكوفيين في دائرة المعارف الإسلامية، وكذا "كارل بروكلمان" في كتابه "تاريخ الشّعوب الإسلامية"، واشترك هؤلاء في القول بعدم وجود مدرسة نحوية كوفية ذات منهج مكتمل وكيان مستقل، وأنّ القول بوجودها قضية كانت من صنع النّحاة المتأخرين. (2)

وأمّا من الدّارسين العرب الذين ذهبوا المذهب ذاته فنجد الأستاذ "إبراهيم السّامرائي" الذي ما وقف عند إنكار وجود مدارس نحوية فحسب، بل رأى في اعتماد مصطلح "المدرسة" ذاته ضربًا من التّقليد الأعمى، وحتى اعتماده هو ذاته له كان على ما يبدو كان عن غير قناعة واضحة؛ إذ قال: «وقد نندفع في هذا الأخذ بحقّ وبغير حقّ حرصًا على الاستجابة إلى العصر بحجة "المعاصرة" واحترازًا أن يوهم الدّارس بالجمود والرّجعية ونحو ذلك، وهذا النّوع من التّلقي قد يحمل الضيم على العلم». (3)

وقد كان الأستاذ ذاته قد نشر بحثًا في مجلة مجمع اللّغة العربية بالأردن وسمه بـ:" **ألنا مدارس نحوية؟**" بسط فيه بأسلوب من الاستفهام أنّ القول بالمدارس شيء بولغ فيه، وأنّ النّحو القديم نشأ للحاجة إليه ثمّ اتّسع أمره، فاجتهد فيه جماعة من متقدمي النّحويين، ثمّ خلفهم جماعة في الكوفة كانت لهم آراء في فروع المسائل وليس في الأصول وسُمّوا بالكوفيين، وأنكر أن يكون هناك مدرستان هما البصرية والكوفيّة، فالنّحو القديم واحدٌ وإن كان هناك من شيء فاختلاف اللاحقين ممّن دعوا بالكوفيين عن المتقدمين البصريين بمسائل تتّصل بالفروع وليس بالأصول. (4)

---

(1) ينظر تفصيل رأيه عند: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: 351.
و: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص: 14، 15.

(2) ينظر: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة، ص: 352.

(3) إبراهيم السامرائي: المدارس النحوية "أسطورة وواقع"، ص: 140.

(4) ينظر: مر. ن، ص: 159.

وإلى مثل إنكاره ذهب الأستاذ " علي أبو المكارم" فقال بفساد: «تلك الفكرة التي شغلت كثيرًا من الدارسين في النّحو العربي قُدامى ومحدثين وهي وجود مدارس نحويّة يتميّز كل منها بأسلوبها الخاص ومنهجها الذاتي...». (1)

وقد اجتهد كل واحد من هؤلاء في عرض قناعته بأدلة ليس السّبيل إلى عرضها في هذا الموضع.

2/ الفريق الثّاني: وأقرّ أربابه وجود مدرستين فحسب في تاريخ النّحو العربي وهما: "البصرية والكوفية"، وأنكر وجود ما تلاها من مثل البغدادية والأندلسية.

وعدّت الأستاذة "خديجة الحديثي" الأستاذ "مهدي المخزومي" على رأس هؤلاء لما صرّح قائلًا: «تردّد اسم البغداديين كثيرًا في أثناء القرن الرّابع بإزاء الكوفيين والبغداديين حتى ليخيّل للدارس أنّ البغداديين كانوا يمثّلون جماعة ثالثة لهم طريقتهم الخاصة ومذهبهم المتميّز، وجاء المتأخرون من النّحاة فرأوا اسم البغداديين يُذكر إلى جانب الكوفيين والبصريين فذهب بهم الوهم بعيدًا وراحوا يركبون الصّعب في تصوير مذهب ثالث، يقف بإزاء مذهب أهل البصرة ومذهب أهل الكوفة، وهو مذهب البغداديين». (2)

وقد عرضت الباحثة أدلة الأستاذ في إنكار وجود المذهب البغدادي وردّت عليه. وإن كان الأستاذ ذاته قد صرّح في كتاب "مدرسة الكوفة" باصطلاح "المدرسة البغدادية" وعدّها "مدرسة انتخابية" تأخذ من آراء البصريين والكوفيين وتحاول التّوفيق بينهما.

كما عدّت الأستاذ "عبد الفتاح إسماعيل شلبي" ممّن صرّحوا بنفي وجود مدرسة ثالثة غير البصرية والكوفية. (3)

3/ الفريق الثالث: ويضم الدّارسين الذين يقرّون بوجود مدارس متعدّدة زيادة على المدرسة البصرية والكوفية لا سيما البغدادية، ومن بعدها الأندلسية.

ومن هؤلاء الأستاذ "أحمد أمين" الذي يعتبر من أوائل من رأوا أنّ المدارس النّحوية ثلاث. وكذا الشّيخ "محمد الطّنطاوي"، والأستاذ "سعيد الأفغاني"، والأستاذ "أحمد مكي الأنصاري"، وغيرهم كثيرون. (4)

وأمّا الذين جعَلُوا المدارس أربعة فالأستاذ "طه الراوي".

---

(1) علي أبو المكارم: تقويم الفكر النحوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1975، ص: 243، 244.

(2) ينظر: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص: 16.

(3) ينظر: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص: 16.

(4) ينظر: مر. ن، ص: 19-21.

في حين عدّها بعضهم خمسة، وهذا مذهب الأستاذ" شوقي ضيف"؛ إذ يضيف إلى الثّلاثة: المدرسة الأندلسية، والمدرسة المصرية، ووافقته في رأيه الأستاذة "خديجة الحديثي". [1]

ولعلّ ذلك مذهب الأستاذ " عبد العالم مكرم الذي خصّص كتابًا سمّاه: "المدرسة النّحوية في مصر والشّام"

بل إنّ بعض الدّارسين توسّع فكان لهم مدرسة في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي ومن ذلك مدرسة الشّاميين ومدرسة المصريين ومدارس إفريقية في تونس والمغرب ومدرسة الأندلسيين، وما إلى ذلك.

ولسنا نبغي من هذا العرض إلّا إيفاء الموضوع بعض حقّه ليكون منارة لمن أراد التّوسع واستقصاء المسألة في مضانها؛ ذلك أننا لا نرى عظيم نفع في إثارة الجدل في مسألة وجود مدارس نحوية من عدمها، ونحن نوافق ما خلصت إليه الأستاذة "خديجة الحديثي" من أنّ « تسميتنا لهذه المجموعات النّحوية أو البيئات النّحوية "مدرسة البصرة" و"مدرسة الكوفة"، و"مدرسة بغداد" و"مدرسة مصر" و"مدرسة الأندلس" و"مدرسة الشّام" لن تغيِّر من المفهوم الذي شاع وعرف عن نحو كل بيئة من هذه البيئات وخصائصه، ولن يغيّر استعمالنا لكلمة "مدرسة" من الواقع شيئًا ولن يحتّم علينا استعمالُها وجود مناهج مختلفة كل الاختلاف للدراسة النّحويّة في كل بلد؛ وذلك لأنّه مهما تعدّدت التّسميات ومهما اختلفت المناهج فلن يظن ظانّ أنّها تكوّن مناهج متباعدة مستقلّة لا رابط بينها ولا تشابه ولا مشاركة».[2]

ولعلّه من العدل والإنصاف ألّا نعدم فضل النّحويين المتأخرين في إتمام هرم النّحو العربي الذي تأصلت قواعده مع المذهب البصري، والحق أنّ النّحو العربي وإن كان جاء لغاية موّحدة وهي الحفاظ على اللّغة فقد كان للنّحويين على تعدّد حقباتهم ما ميّز جهود بعضهم من بعض، ولم يكن مجرّد تقليد حاكوا فيه مذهب البصريين، فقد كان التّجديد سمة مميّزة لكثير من نحويي المذاهب النّحوية على تعاقبها على نحو ما سنفصل فيه في المحاضرات الآتية.

---

(1) ينظر: شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط7، (د. س)، ص:7، 8.

و: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص: 23.

(2) ينظر: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص: 23.

المحاضرة 2:

أسباب ظهور المدارس النّحوية

المحاضرة الثانية: أسباب ظهور المدارس النّحوية

تمهيد

يعدّ النّحو العربيّ صرحًا عظيمًا، متلاحم الأجزاء، سعى إلى تشييده جمع من النّحويين على تعدّد حقباتهم وأماكنهم. وكان غرضهم الأسمى وضع قواعد للحفاظ على اللّغة العربية من اللّحن الذي كاد أن يذهب بخصائصها المميّزة كلّها، لولا أنّ العربية لغة القرآن الكريم محفوظة لحفظ اللّه تعالى كتابه المقدّس.

وليس مُبالغًا فيه قولنا إنّ النّحو متلاحم الأجزاء، على الرّغم من تعدّد اتّجاهاته وتباين مشارب أربابه، وكثرة الخلاف فيه؛ طالما أنّ الكلّ نشأ من مختلف، كما هو شأن الجسد الواحد، وطالما أنّ الغاية المنشودة موّحدة.

ولذلك إذا أردنا أن نبحث في أسباب ظهور المدارس النّحوية –كما هو وسَم المحاضرة–وجب علينا أوّلًا البحث في أسباب وعوامل ظهور النّحو، ثمّ تخصيص الحديث عن البيئة التي ظهر بها دون غيرها من البيئات الإسلامية، على ما يأتي تفصيله:

1–العوامل الباعثة على نشأة النّحو العربي:

ويمكن إيجازها في ثلاثة عوامل رئيسية، هي: [1]

أ–العامل الدّيني:

كان العرب منذ جاهليتهم حتى صدر الإسلام يتكلمون العربية سليقة، ولم تكن لهم حاجة إلى ضوابط مكتوبة يقوّمون بها ألسنتهم، وإنّما دعت الحاجة إلى ذلك حين توسّعت رقعة الدّولة الإسلامية، واعتنق الأعاجم الإسلام فبدأ اللّحن يستشري في جسد الأمّة الإسلامية، وينخر ألسنة أهلها حتى مسّ القرآن الكريم، فانبرى جمع من العلماء الأفذاذ للذّود عن القرآن ولغته، وكان أوّل عمل جليل سعى إلى ذلك ما قدّمه أبو الأسود الدؤلي حين وضع ما يُسمى بـ"نقط الإعراب"، وهو مخصوص بنصّ المصحف.

ومن ثمّة ارتبط الدّرس النّحوي في نشأته الأولى بالعامل الدّيني كما هو شأنه في حضارات عديدة ولكنّه سرعان ما انفصل عن هذه الغاية، وأصبح علمًا مستقلًّا.

ب–العامل الاجتماعي:

كانت البيئات الإسلامية كافة تغصّ بالقوميات المختلفة، وانتشرت نتيجة لذلك لغات متعددة أثرت في ألسنة العرب، فخشي علماء المسلمين على لغة القرآن من أن يصيبها التحريف، فجاء علم النحو.

---

(1) ينظر: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص:50، 51.

و: تمّام حسّان: الأصول، ص: 24-27.

يضاف إلى ذلك حاجة القوميات المتعددة ذاتها إلى اكتساب العربية على وجه سليم، باعتبارها لغة الدين الجديد الذي اعتنقوه، فكان النحو سبيلهم الأساس إلى ذلك.

ج–العامل القوميّ:

وجد العرب وهم أصحاب الدين الجديد أنفسهم أمام حضارات وثقافات متنوعة، فكانوا أمام أمرين: إمّا أن يكونوا أصحاب رسالة لا تستند إلى ثقافة، ومن ثمة سيكون موقفهم موقف التلاميذ من أمم خضعت لهم، وأظهرت الاستعداد لاعتناق دينهم والسير وراءهم، وما هذا بالمرضي، وإمّا أن يسلكوا الطريق التي تليق بأمة قائدة، فيسعوا جاهدين إلى إنشاء ثقافة قومية يجعلون بها الرسالة السماوية مقبولة لدى التابعين المثقفين. وهكذا أقام العرب بنيانهم الثقافي الأصيل على القرآن. ولما كانت لغة القرآن العربية وجب عليهم الحفاظ عليها، وخصّها بالعلوم التي تكفل لها النماء، ومنها علم النحو.

2–لماذا انطلقت الدّراسات اللّغوية من العراق دون شبه الجزيرة العربية؟

تعدّ شبه الجزيرة العربية مهد العربية وموطنها الأصلي، ولذلك كان من المنطقي أن ينهض أهلها بمهمّة وضع النّحو دواءً لداء اللّحن، ولكنّ الواقع خالف المنطق فانطلقت الدّراسات من العراق دون شبه الجزيرة العربية، ولعلّ مردّ ذلك إلى عاملين أساسيين.

الأوّل: العامل اللّغويّ: ذلك أنّ عرب شبه الجزيرة بقوا محافظين على فصاحتهم، فلم تظهر عندهم الحاجة لوضع القواعد، بينما كانت العراق ملتقًى للأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام واستقرُّوا فيها موطنًا، وحاولوا اكتساب العربية لسانًا، فوقعوا في اللّحن الذي سرعان ما مسّ ألسنة العرب كذلك لمخالطتهم لهم؛ فظهرت الحاجة ماسّة إلى وضع علم النّحو لدفع اللحن، والحفاظ على سلامة اللغة.

الثّاني: العامل الحضاريّ: ذلك أنّه لم يؤثر عن العرب إرث حضاريّ وفكريّ ملموس، فما اشتهروا بهم أنّهم أمّة شاعرة، ما عرفت من العلوم إلّا قليلها.

وأمّا العراق فهي مهد الحضارات، وذات إرث فكري قيّم، فليس عجبًا أن ينهض أهل العراق بمهمّة التّصدي لداء اللّحن لنشاطهم الفكريّ المتواصل.

يضاف إلى ذلك مساهمة بعض الأعاجم الذين وفدوا من حضارات متعدّدة هندية ويونانية وسريانية وما إلى ذلك، في العمل جنبًا إلى جنب مع عرب العراق في النّهوض بعلم النّحو، وإرساء قواعده، وتشييد صرحه.

3–العوامل الباعثة على ظهور النّحو في البصرة قبل الكوفة:

يؤرّخ لبداية النّحو العربي زمانًا بمنتصف القرن الأوّل للهجرة، ومكانًا بالبصرة؛ وذلك باعتبار شخص أبي الأسود الدؤلي (69هـ) الذي تتفق أكثر المراجع القديمة والحديثة على أنّه أوّل نحوي عربي.

فقد ظهرت الإرهاصات الأولى لعلم النّحو مع أبي الأسود الدؤلي وتلاميذه؛ هذا العالم الذي كان يقيم بالبصرة ويعمل قاضيًا بها زمن خلافة علي بن أبي طالب، واجتمع له من الأسباب ما حفّزه على وضع مبادئ أولية في علم النّحو. ثمّ تطّور النّحو من بعده، وعرف قفزات متسارعة حتى اكتمل النّحو البصري على يد " سيبويه" (180هـ).

وبعد مسيرة تقارب القرن من الزّمن من ظهور النّحو البصري، بدأت ملامح النّحو الكوفي تلوح في الأفق. ولعلّ السّؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو: ما هي الأسباب والعوامل التي جعلت النّحو يظهر في البصرة قبل الكوفة؟ [1]

ونجيب قائلين: لقد تهيّأ للبصرة من العوامل ما جعلها سبّاقة في وضع النّحو العربي، ويمكن تفصيل ذلك في النقاط الآتية:

أ/ الموقع الجغرافي: [2]

مُصِّرت مدينة البصرة زمن خلافة عمر بن الخطاب – رضي اللّه عنه–وبُنيت على أنقاض ميناء فارسي قديم يسمّى" الخُرَيْبَة"، وهو معروف منذ القدم بأنّه مرفأ تجاريّ يقصده الأعاجم من كل حدب وصوب للتجارة.

فلمّا بُنيت البصرة وعُمِّرت، سكنها عربٌ وكثير من الأعاجم الذين وفدوا إليها واعتنقوا الإسلام.

فكان لموقعها الجغرافي المهم ومن كونها مركزًا تجاريًا يتوسط الشّرق والغرب ما ساعد على نموّها واتّساعها بزمن قصير، فهاجر إليها من هاجر من القبائل العربية وبخاصة من تميم وقريش وكنانة وثقيف وباهلة وبكر وعبد القيس والأزد وغيرهم. كما سكنها الفرس الذين دخلوا الإسلام، وجماعة من السّند يُسَمّون "الزّط"، وجماعة من النّبط الآراميين، والسبابجة الوافدون من جنوب شرقي آسيا، واليونانيون، والزّنوج النازحون إليها من السودان وزنجبار. وكانت هذه العناصر تكوّن مجتمع البصرة المشتغل بالتّجارة والزّراعة والصّيد وغيرها من المهن. [3]

---

(1) ذلك أنّه لا يمكننا الحديث عن المدرسة البصرية أو غيرها من المدارس بمعزل عن المدن التي ظهرت فيها؛ فما النحويون إلّا أشخاص ينتمون إلى بيئة جغرافية معينة تأثروا بمعطياتها الثقافية والسياسية والإيديولوجية، ما يحيل ضمنيًّا على تبلور فكرهم النحوي في المناخ العام للحيّز الجغرافي الذي نشأوا فيه، واكتسابه خصائصه المنهجية منه، ولعلّ هذا ما سنقف عليه في المحاضرات الآتية.

(2) ينظر: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص: 25، 111.

و: محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط1، 1980، ص:46.

(3) ينظر: محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ص:46.

وأمّا الكوفة فقد مصِّرت بعد البصرة بسنتين أو ثلاث، إلّا أنّها مدينة داخلية تقع على حافة الصّحراء، فلم يقصدها الأعاجم بكثرة، وكان أكثر سكانها عربًا. وكان قد أوّل نزول المسلمين فيها في السنة السادسة عشر أو السابعة عشر للهجرة.

ولعلّ السّبب في أن كانت الكوفة متّجه أنظار العرب أنّ القيادة العامة لجيوش المسلمين كان مقرّها الكوفة، وأنّها كانت مركز الحركات العسكرية، ومرّ على الكوفة زمن كانت فيه قاعدة الخلافة الإسلامية، وذلك في عهد "علي بن أبي طالب"، والقواعد دائمًا متّجه الأنظار من العلماء وأصحاب المصالح، حتى أُطلق عليها اسم "كوفة الجند". (1)

وكان لكثرة الأعاجم في البصرة، وقلتهم في الكوفة تأثير في جوانب عديدة، منها: اختلاف التركيبة الاجتماعية بين المدينتين، والاستقرار السياسي، وطبيعة الدراسات التي غلبت على كل واحدة.

ب/ التّركيبة الاجتماعية، وطبيعة العلاقة بين عناصرها:

كان لتباين الموقع الجغرافي للمدينتين الأثر البالغ في اختلاف التّركيبة الاجتماعية فيهما؛ فالبصرة كانت عاصمة عراق العجم لأنّ أكثر سكانها أعاجم، والكوفة عاصمة عراق العرب لاستقرار أكثرهم فيها. (2)

واستقرار الأعاجم في البصرة بكثرة جعل اللّحن أسرع في التّفشي على ألسنة أهلها، ممّا استدعى ظهور علم النّحو؛ حيث «كان لاختلاط العرب بغيرهم أثره في ضعف السّلائق وانحراف الألسنة، وظهور اللّكنة، وفشوّ اللّحن...وإذ اتّخذ اختلاط العرب بغيرهم في البصرة طابع الاندماج كان ردّ الفعل عند العلماء البصريين قويًّا قوّة الخطر المحدق بلغة القرآن ولغة العرب، ولذلك كانت المبادرة إلى العمل اللّغوي في البصرة قبل غيرها، وكان ظهور الدّرس اللّغوي والنّحو في البصرة قبل غيرها». (3)

لكن اللّحن لم يكن السّبب الوحيد وإن كان هو السّبب الرئيس، بل تضافرت معه عوامل أخرى، أهمها ما يأتي بيانه:

ج/ الاستقرار السّياسي:

عُرِفت البصرة منذ تمصيرها باستقرارها السّياسي، وبُعدها عن النّزاعات والحروب، فهي من جهة لم تكن مقرّ الفتوحات الإسلامية، ومن جهة ثانية كان لتفتّحُ أهلها وتعايشهم مع العنصر الأعجمي الأثر الأكبر في استقرارها شبه دائم.

---

(1) ينظر: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة، ص: 12، 13.

(2) ينظر: تمّام حسّان: الأصول، ص: 30،31.

(3) مهدي المخزومي: الفراهيدي "عبقري من البصرة"، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط2، 1989، ص:11.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الاستقرار الأمني عامل أساس لنهوض النّشاط الفكريّ، فكان من ثماره" علم النّحو"

وأمّا الكوفة فقد عُرفت بكثرة الاضطرابات والحروب، فهي أوّلاً كانت مقرّ الفتوحات الإسلامية، ثمّ اتّخذها علي بن أبي طالب مركزًا لخلافته، ومنذ ذلك الزّمن بدأ التشيع والحروب. (1)

ثمّ إنّ طبيعة سكانها من حيث كون أكثرهم عربًا، بقوا محافظين على عاداتهم في المفاخرة والمشاجرة لأتفه الأسباب، ومن ثمّة انشغل الكوفيون بمشاغل غير النشاط الفكري والعلمي، ما أدّى إلى تأخّر علم النّحو عندهم.

د/ طبيعة الدّراسات التي غلبت على كل مدينة:

اشتهرت مدينة البصرة بأنّها مدينة علم، ذاعت فيها العلوم العقلية مثل: الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وما إلى ذلك من العلوم. ولعلّ أهمّ ما مكّن لها من ذلك تنوّع السكّان واللغات والثقافات فيها «ومن الطّبيعي أن يكون نتيجة هذا المزيج من اللغات والثقافات والعادات تأثّرًا وتأثيرًا واضحين في كلّ واحدة من هذه العناصر، فللعرب غلبة الدّين واللّغة، وللفرس غلبة أسباب الحضارة من ملبس ومأكل وملعب وبناء وغير ذلك، ولليونانيين والهنود غلبة الفلسفة والمنطق، والطب، وهكذا صار الطابع الذي يطبع المجتمع البصري مزيجًا من كلّ هذه الثقافات المتباينة». (2)

فليس غريبا أن يتطوّر علم النّحو في هذه المدينة في كنف المناخ العلمي العام، ويتأثّر به بعض التّأثر.

وأمّا الكوفة: فمدينة فن، عُرفت برواية الأشعار والأخبار والقراءات القرآنية، والفقه الإسلامي، ولعل هذه العلوم النّقلية أثّرت في الكوفيين من جانبين: شغلتهم عن التّطلع إلى العلوم العقلية، هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّها ساهمت في حفاظ الكوفيين على فصاحتهم، ما أخرَّ عنايتهم بعلم النّحو.

هـ/ تأثير العنصر الأعجمي:

كان للعنصر الأعجمي تأثير مزدوج في التّسريع بظهور المدارس النّحوية، الأول سلبيّ: تمثل في شيوع اللّحن على ألسنة البصريين أكثر من الكوفيين لقلّة مخالطتهم للعنصر الأجنبي في الكوفة على قلّته.

والثاني إيجابيّ: ذلك أنّ بعض هؤلاء الأعاجم وفدوا إلى البصرة بثقافاتهم المتنوعة وزادهم الحضاري، ونبغَ منهم جَمعٌ أسهموا مع العرب يدًا بيدٍ في إرساء هرم النّحو العربي، ولا أدلّ على ذلك من أنّ أشهر النّحويين غير عرب في الأصل، وعلى رأسهم سيبويه.

---

(1) ينظر: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: 12-14.

(2) ينظر: محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب، ص: 46.

كلّ العوامل المذكورة آنفًا مجتمعة سرّعت بظهور النحو البصري قبل غيره من الأنحاء بخاصة النّحو الكوفي، ما يعني أسبقية المدرسة البصرية على المدرسة الكوفية باصطلاح المحدثين.

وأمّا أسباب ظهور المدارس النّحوية المتبقية، فنأتي على تفصيلها في مضانّها من تلك المحطات.

المحاضرة 3:

مصادر المدارس النحوية.

المحاضرة الثالثة: مصادر المدارس النحوية.

تمهيد:

جاء النحو العربي حماية للغة العربية من اللحن، وانبرى –على ما مرّ بنا–جمع من العلماء الأفذاذ إلى وضع قواعد للّغة العربية حفظًا لها من الضياع. والجدير بالذكر أن تلك القواعد لم تكن تصدر عن مجرّد هوىً أو خاطرة، وإنّما استُنبِطت من مصادر معلومة، شكّلت في مجموعها مصادر السماع، أو ما يصطلح عليه حديثًا بـ "المدوّنة العربية" ممثّلة في: القرآن الكريم وقراءاته، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب شعره ونثره.

أولا: القرآن الكريم وقراءاته.

القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على النبي محمد –صلى الله عليه وسلم–بوساطة الروح الأمين، باللفظ العربي، المنقول إلينا بالتواتر، والمكتوب بين دفتي المصحف، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس. وتتّصل بهذا النص القرآني أوجه لأدائه تعرف بالقراءات القرآنية.

والقراءات هي الأوجه المختلفة التي سمح الرسول (صلى الله عليه وسلّم) بقراءة نصّ المصحف بها قصد التيسير.

وهي علم بكيفيات أداء كلمات القرآن الكريم من تخفيف، وتشديد، واختلاف ألفاظ الوحي في كتابة الحروف، وكيفية نطقها.

وقد نال القرآن الكريم اهتماما كبيرًا، وضُبِط نصّه بحيث لا يرقى إليه أدنى ريب، وأصبح المثل الأعلى، إليه مفزع الفقهاء، ومنه يأخذ علماء اللغة شواهدهم التي يبنون عليها قواعدهم، وأصولهم. وأقرّ النحاة بأنه كلام الله أجري على كلام العباد، فكُلِّمُوا بكلامهم. وجاء القرآن على لغتهم، وعلى ما يعنون. كما أنّه ليس ثمة خلاف في حجيّة النصوص القرآنية. [1]

من هنا ظهرت شواهد القرآن الكريم في كتب النحو منذ سيبويه، ومن تلاه من النحاة على اختلاف مذاهبهم، وإن كانت الغلبة للشاهد من الشعر، وهو تقليد دأب عليه جمهور النحاة، وله ما يبرره؛ فالشعر ديوان العرب وروايته شائعة قبل نزول القرآن، وربما حاكى النحاة في اعتدادهم بالشعر أكثر من القرآن

(1) ينظر: علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، دار غريب، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص: 46.

الفقهاءَ في تفسيرهم للقرآن الكريم؛ فكان إذا خفي عليهم الحرف من القرآن عادوا إلى الشعر فالتمسوا ذلك فيه، ومن ثمة برز الشاهد من الشعر في كتب الفقهاء والمفسرين، كما غلب في كتب النحاة واللغويين.

وإذا تتبعنا منهج النحاة في الاستشهاد بالقرآن الكريم وجدناها مناهجَ لا منهجًا واحدًا؛ فهم إمّا يفردون الشواهد من القرآن في مسألة ما، أو إنهم يقرنونها بما ورد عن العرب من شعر أو نثر، وهذا الأغلب. مبتدئين حينًا بالقرآن، وحينًا بالشعر أو النثر، وحينًا بأمثلة يقتبسونها على ما صحّ عن العرب، وليس وراء ذلك توثيق للنص القرآني؛ فهم كثيرًا ما يوردون الآيات دون ذكر سورها، ورقمها، وأحيانًا لا يقدّمون لها بما يدلّ على أنها كلام الله تعالى، ولا يذكرون كثيرًا نص الآية كلّه. بل يكتفون بموضع الشاهد منها فحسب، وفي الكتاب لسيبويه نماذج ممّا ذكرناه تبيّن منهجه من الاستشهاد بالقرآن باعتباره إمام النحاة، وأكثرهم اتبّع منهجه ذاك. (1)

وإذا كان هذا موقف النحاة من الاستشهاد بالقرآن، فما موقفهم من الاستشهاد بالقراءات القرآنية؟

نصّ اللغويين والنحاة صراحة على أن القرآن سيّد الحجج، وأن قراءاته سنّة واجبة الاتبّاع، وسواء أكانت متواترة أم آحادًا أم شاذة فهي ممّا لا يصحّ ردّه ولا الجدال فيه. وإن كانت القراءة التي وردت مخالفة للقياس؛ إذ ينبغي أن تقبل القراءة الصحيحة أيًّا كانت دون تحكّم شيء آخر فيها.

يقول السيوطي(911هـ): «كل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية، سواء أكان متواترًا أم شاذًا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة إذا لم تخالف قياسًا معروفًا، بل لو خالفته يُحتَجّ بها في ذلك الوارد بعينه. ولا يُقاس عليه نحو: اِسْتَحْوَذَ». (2)

ويقول البغدادي (ت 1093هـ): «قائل ذلك [يقصد النثر] إمّا ربّنا تبارك وتعالى: فكلامه عزّ اِسمه أفصح كلام، وأبلغه، ويجوز الاستشهاد بمتواتره، وشاذه». (3)

إلى هنا، وهذا الكلام النظري السابق متّفق مع يجب أن يكون بعد هذا التوثيق الرائع لنصّ القرآن، لكنّ ما كان فِعْلا لم يتّفق مع هذا النظر المعقول ذلك أن الممارسة العلمية للدراسة في كتب النحو لم تتوافق مع تلك الآراء التي تأخّرت في الزمن عنها بعد أن قطع النحاة شوطًا كبيرًا للنّمو بالنحو.

فالمتصفح لكتب النحو –على تعدد مذاهب أصحابها–يلحظ أن النحاة تباينت مواقفهم من الاستشهاد بالقراءات. فمنهم من قَبِل القراءات، واستشهد بها، واتّخذها أصلًا في بناء القاعدة، لاسيما جمهور

---

(1) ينظر: خديجة الحديثي: الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، مطابع مقهوي، الكويت، ط1974، ص: 32-41.

(2) الاقتراح في علم أصول النحو، ضبط وتعليق: عبد الحكيم عطية، دار البيروني، (د. ب)، ط2، 2006، ص: 39.

(3) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1998، 1/ 09.

الكوفيين، ومنهم من لم يجد حرجًا في تخطئتها ورميها بالشذوذ، والضعف إذا ما خالفت قواعده، وعجز عن تأويلها، وتخريجها وفق تلك القواعد، وهذا دأب أكثر البصريين.

ولهذا الموقف المتباين بين البصريين، والكوفيون ما يعللّه؛ فالكوفة مدينة فن اشتهرت فيها القراءات، والقراء، وفيها ثلاثة من القرّاء السبعة، مقابل قارئ واحد في البصرة.

كما أنّه يرجع إلى ما عرفوا به من توسّع في أصول اللغة، وقياس على القليل، واعتداد بالمثال الواحد. فأمكنهم بذلك توجيه كثير من القراءات وتخريجها على مقتضى أصولهم، ومن هنا قلّت تخطئتهم لها. وكانت القراءات مصدرًا من مصادر النحو الكوفي، يقول مهدي المخزومي: «والقراءات مصدر هام من مصادر النحو الكوفي، ولكن البصريين كانوا قد وقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية، وأخضعوها لأصولهم وأقيستهم. فما وافق منها أصولهم ولو بالتأويل قبلوه، وما أباها رفضوا الاحتجاج به، ووصفوه بالشذوذ، كما رفضوا الاحتجاج بكثير من الروايات اللغوية وعدّوها شاذة تحفظ، ولا يقاس عليها». (1)

غير أن المتصفح لكتب النحاة على تعدّد مشاربهم وأزمانهم يلحظ أن تعاملهم مع القراءات متشابه، فأكثرهم لم يجد حرجًا في تخطئة القراءات على اختلاف مراتبها، ورميها بالقبح أو الضعف والشذوذ إذا عجزوا عن فهمها، أو توجيهها وفق قواعدهم.

وعلى العموم، فإنه يمكن ردّ تشدّد النحاة في الأخذ بالقراءة وردّها، وكذا تشددهم في شرط موافقتها كلام العرب إلى:

1-اعتبار القرآن وقراءاته نصوصًا لغويّة، لا نصوصًا مقدسة.

2-ظنّ بعضهم أن القراءة اختيارية لا توقيفية، وهو رأي جماعة منهم "الزمخشري".

3-اعتقادهم أن تواتر القراءات ثابت عن القراء السبعة، ولم يثبت عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهذا رأي.

4-مخالفة العربية يضعف القراءة، والأخذ بالضعيف يؤدّي إلى الاضطراب، وإن كان هذا الظن باطلاً؛ لأن القرآن هو الأصل المعجز المنزّه وهو المبتدأ والمنتهى في الاحتجاج في الفقه، واللغة، والنحو.

وردًّا على موقف هؤلاء النحاة الذي رموا القراءات باللّحن يقول ابن الطيب الفاسي: «... ثم إنّ هؤلاء القرّاء ليس لهم في القراءات المذكورة آراء ينسبون بها إلى الخطأ واللحن، وإنّما هم نقلة لما رووه بالتواتر، وقد تقرّر أن القراءة سنّة متّبعة، والمعتبر فيها التّلقي عن الأئمة لا اعتماد الرأي كما قرّروه، فالاعتراض علي،

(1) مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: 337.

وتلحينهم لا معنى له... والذي عابوه، واعترضوه هو الحجة والدليل على جوازه، وارتكابه في العربية؛ لأن القرآن حاكم عليها، وإن خالفت القواعد العربية؛ لأن غاية ما فيه أن يكون شاذًّا والشذوذ لا ينافي الفصاحة».[1]

ثانيا: الحديث النبوي الشريف:

1-موقف جمهور النحويين من الاستشهاد بالحديث.

يعدّ القرآن الكريم المصدر الأوّل من مصادر التشريع الإسلامي، كما يعدّ المصدر الأوّل من مصادر الاستشهاد اللغوي؛ لأنّه يمثّل أعلى درجات الفصاحة والبيان. وكذلك الحديث النبوي الشريف، فهو ثاني مصادر التشريع، وكان ينتظر أن يكون ثاني مصادر الاستشهاد اللغوي؛ لأنّه صادر عن أفصح العرب قاطبة سيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم.

إلّا أنّ المتصفّح للكتب النحوية الأولى يلحظ أن النحاة الأوائل لم يستشهدوا بالحديث إلّا نادرًا، حتّى إذا وقع في كتبهم كان تقوية لِما يُستَشْهَد به من قرآن أو كلام العرب، دون أن يكون مقصودًا لذاته، ودون أن يتّخذوه مصدرًا في استنباط الأحكام النحوية. وهكذا انصرف النحاة الأوائل عن الاستشهاد بالحديث، دون أن يعلّلوا موقفهم ذاك.

وامتناع النحاة المتقدمين عن الاحتجاج به في استنباط الأحكام النحويّة جعل النحاة المتأخرين ينقسمون إزاء هاته المسألة ثلاث طوائف:[2]

الطائفة الأولى: المانعون للاستشهاد بالحديث مطلقًا.

ولعلّ أبرز من يمثّل هذا الاتجاه: ابن الضائع (680هـ)، وتلميذه أبو حيّان الأندلسي (745هـ)، حتى إنّ قضية الاستشهاد بالحديث لم تُثَر إلّا في القرن السابع للهجرة عند نحاة الأندلس، وذلك حينما أكثر ابن مالك الأندلسي (672هـ) من الاستشهاد به في إثبات القواعد الكلية، فانبرى أبو حيّان يردّ عليه مسلكه، ويتّهمه بمخالفة المتقدّمين من النحاة، وفيما عدا ابن الضائع وتلميذه أبي حيّان لا تكاد تذكر المراجع إمامًا آخر اعترض على الاحتجاج بالحديث مطلقًا.

الطائفة الثانية: المجيزون للاستشهاد بالحديث مطلقًا.

---

(1) فيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح، تح: محمود يوسف فجّال، دار البحوث، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2000، 1/ 428.

(2) ينظر: خديجة الحديثي: موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف، دار الرشيد، العراق، ط1981، ص: 15-26.

وأما الذين أجازوا الاستشهاد به فأصحاب المعاجم؛ إذ تذكر دراسة تناولت الاستشهاد بالحديث في المعاجم العربية أنّ المعاجم –منذ أول معجم وضع في العربية "العين" – تحفل بعدد كبير من شواهد الحديث.

وأمّا النحاة فإنّ أول من أكثر من الاستشهاد بالحديث فابن مالك الأندلسي. وقد تبعه في مسلكه هذا من تلاه من نحاة القرون المتعاقبة، ومنهم: ابن هشام الأنصاري، وشرف الدين الأستراباذي، والبدر الدماميني، والخطيب البغدادي، وابن الطيب الفاسي، وما إلى ذلك من النحاة المتأخرين.

الطائفة الثالثة: المتوسطون في الاستشهاد بالحديث.

وأمّا الطائفة الثالثة فقد شملت النحاة الذين قبلوا الاحتجاج ببعض الأحاديث دون بعض بشروط محددة. ولعلّ أبرز من يمثل هذا الاتجاه: الإمام الشاطبي (790هـ) والإمام السيوطي(911هـ)؛ حيث نصّ الشاطبي على جواز الاحتجاج بالأحاديث التي اعتُنِيَ بنقل ألفاظها، وتبعه في ذلك السيوطي، قال: «وأما كلامه (صلى الله عليه وسلم) فيُسْتَدَلّ منه بما ثبت أنه قاله على اللفظ المروي، وذلك نادر جدًا».[1]

2–أسباب رفض الاستشهاد بالحديث النبوي.

ما ينبغي علمه في بادئ الأمر أن الاستشهاد بالحديث النبوي عند النحاة الأوائل ينظر إليه من جانبين:

الجانب الأول: اتخاذ الحديث شاهدًا يدعم الشواهد اللغوية الأخرى من القرآن، وكلام العرب، وهذا لا خلاف فيه حتى عند النحاة المعارضين للاحتجاج به أمثال ابن الضائع وأبي حيّان؛ إذ تذكر المراجع أن هذا الأخير استشهد في كتابه "ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب" بعدد لا بأس به من الأحاديث.

وأما الجانب الثاني: فهو اتّخاذ الحديث مصدرًا أساسًا في استنباط القواعد الكلية، وهذا أمر يُجْمَع فيه على أنه لم يقع عند النحاة الأوائل إلّا مع ابن مالك الأندلسي، وهو ما عابه عليه أبو حيّان، وعكف يردّ عليه مذهبه، ويتّهمه بمخالفة مذهب المتقدمين من النحاة في ترك الاستشهاد بالحديث، وإستنباط الأحكام بناءً عليه.

وأما عن أسباب ترك المتقدمين من النحاة الاستشهادَ بالحديث، فقد حصرها المتأخرون منهم في سببين رئيسين: [2]

الأول: رواية الحديث بالمعنى؛ فتعددت إذ ذاك الألفاظ في القصة الواحدة، والأرجح أنها ليست كلّها ألفاظه (ص)، ولو ثبت أنها ألفاظه لجاز الاستشهاد بها.

والثاني: أن رواة الحديث كانوا من الأعاجم فوقع اللحن فيما رووه من أحاديث.

---

(1) ينظر: السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 43.

(2) ينظر: السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 43.

وذهب أحدهم إلى أن علة الامتناع تعود إلى عدم تعاطيهم إيّاه؛ لأنهم استغنوا بما وجدوه في كلام الله، وكلام العرب عن الحديث.

وأما الدارسون المحدثون فحصروا أسباب إعراض النحاة الأوائل عن الاحتجاج بالحديث في:

أ-التّحرّز الديني.

ب-قلّة مادة الحديث في أيدي هؤلاء.

ج-امتناعهم لأسباب مذهبية، وسياسية جعلتهم محافظين إزاء الاستشهاد به.

د-كثرة الوضع في الحديث.

3-موقف علماء اللغة المحدثين من الاستشهاد بالحديث:

تباينت مواقف المحدثين في بادئ الأمر من مسألة الاستشهاد بالحديث على نحو ما عُرِفت به عند المتأخرين من النحاة.

إلاّ أن هذه المسألة فُصِل الأمر فيها في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وخرج أعضاء المجمع بقرار يخص مسألة الاستشهاد بالحديث، هذا بيان القرار، ونصّه: [1]

«اختلف علماء العربية في الاحتجاج بالأحاديث النبوية لجواز روايتها بالمعنى، ولكثرة الأعاجم في رواتها. وقد رأى المجمع الاحتجاج ببعضها في أحوال خاصة، مبيّنة فيما يأتي:

1-لا يُحْتَجُّ في العربية بحديث لم يُدَوَّن في الكتب المدوّنة في الصدر الأول ككتب الصّحاح الستة، فما قبلها.

2-يحتجّ بالحديث المدوّن في هذه الكتب الآنفة الذكر على الوجه الآتي:

أ-الأحاديث المتواترة المشهورة.

ب-الأحاديث التي تستعمل ألفاظها في العبادات.

جـ-الأحاديث التي تعدّ من جوامع الكلم.

د-كتب النبي (صلى الله عليه وسلم).

هـ-الأحاديث المروية لبيان أنه كان (صلى الله عليه وسلم) يخاطب كل قوم بلغتهم.

و-الأحاديث التي رواها من نشأ بين العرب الفصحاء.

ز-الأحاديث التي عرف من حال رواتها أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى.

ح-الأحاديث المروية من طرق متعددة، وألفاظها واحدة».

---

(1) ينظر: ياسين أبو الهيجاء: مظاهر التجديد لدى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2003، ص: 21.

ثالثا: كلام العرب شعره ونثره:

1/ النثر:

يشتمل كلام العرب على نوعين من المادة اللغوية: الشعر والنثر. وأمّا النثر فمصطلح يتّسع لنوعين من المادة اللغوية: (1)

الأولى: ما يندرج ضمن الفنون الأدبية العامة المشهورة عند العرب في إطار عصر الاستشهاد اللغوي، ولعلّ أهمها: الخطابة والمثل والحكمة والنادرة، وحتى الألغاز. وهذه الفنون يستشهد بها على نحو ما يستشهد بالشعر.

الثانية: الكلام اليومي العادي المسموع عن عرب البادية، وهذا الذي خرج اللغويون لجمعه حقيقة من البوادي العربية، وخضع لمعياري الزمان والمكان.

وفيه اختلف فيه البصريون والكوفيون؛ حيث اقتصر سماع البصريين على ست قبائل تقع في أواسط شبه الجزيرة العربية وهي: قيس وتميم وأسْد وبعض كنانة وبعض الطائيين، بينما توسّع الكوفيون وسمعوا من كل القبائل العربية، حتى إنهم سمعوا من أعراب سواد الكوفة وبغداد.

ولا يشترط في هذا النوع من الكلام معرفة قائله بعينه كما هو الحال في الشعر، وإنّما الثقة تكون لمن روى، وفي أي عصر وأي قبيلة، وهو معيار اتّخذه النحاة وأصحاب اللغة للشواهد عامة.

2/ الشعر:

لاقى الشعر اهتمامًا كبيرا من اللغويين والنحويين على حدٍّ سواء، واعتبروه الدعامة الأساسية لهم، حتى إن كلمة "الشاهد" تخصّصت في زمن ما وأصبحت مقصورة على الشعر، ولذلك نجد أكثر كتب الشواهد لا تحوي غير الشعر. (2)

وعلى الرغم من أن الشواهد الشعرية شكّلت أكبر نسبة من شواهد النحويين عموما، فإنّ الشعر لم يكن بمستوى واحد عندهم، ونظروا إليه باعتبار طبقات شعرائه، التي قُسِّمت إلى أربع طبقات، وهي: (3)

الطبقة الأولى: وتضمّ الشعراء الجاهلين، وهم قبل الإسلام، من أمثال امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى. وقد أجمع النحويون على صحة الأخذ بشعر هاته الطبقة دون خلاف.

الطبقة الثانية: وتضم الشعراء المخضرمين: وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كلبيد وحسّان بن ثابت، ويؤخذ عنهم بإجماع شأنهم شأن الجاهليين.

---

(1) ينظر: ينظر: أحمد عمر مختار: البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط4، 1982، ص: 47.

(2) ينظر: ينظر: أحمد عمر مختار: البحث اللغوي عند العرب، ص: 43.

(3) ينظر: البغدادي: خزانة الأدب، 1/ 5-8.

الطبقة الثالثة: وتضم الشعراء المتقدمين، ويقال لهم "الإسلاميون" وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير والفرزدق، وآخرهم ابن هرمة، قال أبو عبيدة: "افتتح الشعر بامرئ القيس، وخُتِم بابن هرمة". والصواب صحّة الاستشهاد بشعر هؤلاء الشعراء لأنهم ضمن عصر الفصاحة، ومع ذلك لم يتورّع النحويون الذين عاصروهم عن تخطئتهم، على نحو ما يروى لنا من وقائع بين عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي والفرزدق ومشاحنات، انتهت بهجاء الفرزدق له في غير موضع.

الطبقة الرابعة: وتضمّ الشعراء المولّدين، ويقال لهم "المحدثون"، وهم من بعد الإسلامين كبشار بن برد وأبي نواس وأبي تمّام. والصواب عدم صحة الاستشهاد بشعرهم؛ لأنهم تجاوزوا عصر الفصاحة، وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم، واختاره الزمخشري فاستشهد بشعر أبي تمام في عدة مواضع.

وعلى العموم فإن هذه النصوص اللغوية شكّلت المصادر الأساسية التي استقت منها المدارس النحوية العربية في مجملها مادة الدرس النحوي، وكانت الأساس في استنباط القواعد، وكان الاختلاف فيما بينها في درجة الأخذ من كلّ مصدر وشروطه، ومن ثمة كانت هذه الاختلافات الفرعية أسبابًا رئيسية في اختلاف الأحكام النحوية بين جمهور النحويين على تعدّد مذاهبهم.

المحاضرة 4:

مناهج المدارس النّحوية العربية القديمة

المحاضرة الرّابعة: مناهج المدارس النّحوية العربية القديمة

تمهيد:

يعدّ النحو العربي من أجلّ العلوم التي أفرزها الفكر العربي الإسلامي منذ عصوره الأولى، وقد جاء لغاية سامية وهي الحفاظ على لغة القرآن من اللحن من خلال تأصيل قواعدها وضبط أحكامها على أسس علمية متينة.

وليس من الجور أن يأخذ النحو العربي صفة "العلمية" لاستيفائه شروط العلم الأساسية وهي: الموضوع والمصطلحات والمنهج.

فأمّا موضوعه فهو اللغة العربية من حيث وضع قواعدها وأحكامها، وأمّا مصطلحاته فزاده الاصطلاحي أعظم من يحصر في عدد، وأمّا المنهج فقد استنبط النحويون العرب قواعدهم على أسس منهجية قويمة تعددت بتعدد سبل تعاملهم مع المادة اللغوية.

والمقصود بالأسس المنهجية للمدارس النحوية «منظومة المبادئ والمفاهيم النظرية التي قام عليها النحو العربي، وكذلك الإجراءات المنهجية التي استخدمها النحاة في دراستهم لمادتهم بهدف الوصول إلى القواعد النحوية، ثم بهدف دراسة هذه القواعد؛ ذلك أنّ عمل النحاة لم يتوقف عند الوصول إلى القاعدة، وإنّما تعدّى ذلك إلى دراستها وتفسيرها». [1]

وما ينبغي التنبيه عليه أنه قد يخيّل للدّارس المبتدئ أن اصطلاح المدارس النحوية يوحي إلى التباين المطلق فيما بين المذاهب النحوية من حيث أسسها ومرجعياتها المعرفية والإيديولوجية وغاياتها، كما قد يحيل على وجود مناهج مختلفة كلّ الاختلاف للدراسة النحوية في كلّ مدرسة. إلّا أن الصواب أن الروابط بينها أكثر ممّا فرّقها؛ فما دامت اللغة التي تستقي منها هذه المدارس مادتها هي اللغة العربية، ومادامت الأصول المتبعة في هذا الدرس النحوي قائمة على الاستنباط للظواهر النحوية والصرفية الواردة في هذه اللغة فلن تختلف المناهج الاختلاف المطلق وإن اختلفت المدارس في بعض المسائل الفرعية.

ولعلّ الرابط الأساس المشترك بين هذه المدارس هو رابط الدّرس النّحوي والبحث في موضوعاته، ومن هنا يمكن أن نقف على مناهج أو أسس منهجية مشتركة بينها. ولعلّ أهم الخصائص المتعلّقة بمناهج المدارس النّحوية وأسسها المنهجية ما يأتي تفصيله:

أولا: السّماع.

---

(1) حسام أحمد قاسم: الأسس المنهجية للنحو العربي "دراسة في كتب إعراب القرآن الكريم"، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ص:7.

يعدّ السّماع أوّل أساس منهجيّ اعتمده النّحويون في تأصيل قواعدهم؛ ذلك أنّ القواعد لم تأت من العدم، وإنّما استقرئت من نصوص لغوية معيّنة اصطلح عليها القدماء" بالسّماع".

والسماع من حيث هو أساس منهجي لجمع اللغة يُعرّف بأنّه: «الأخذ المباشر للمادّة اللّغوية من أفواه النّاطقين بها». (1)

وهذه المشافهة هي التي يفصل بها بين السّماع والرّواية؛ إذ الرّواية أعم من السّماع، فقد تشمل الأخذ المباشر، وغير المباشر للمادة اللّغوية، أي إنّها قد تكون سماعًا عند سماع، الأول من فم العربي إلى اللّغويّ، والثّاني من اللّغويّ الأوّل إلى اللّغويّ الثّاني.

وقد خضع السّماع عند اللّغويين العرب لضابطين منهجيين هما: الزّمان والمكان.

فأمّا الزّمان: فحُدِّد منذ العصر الجاهلي حتى العصر الأموي، أي من 150 قبل الإسلام حتى 150 بعد الإسلام، واستمر بعضه إلى القرن الرّابع للهجرة.

وأمّا المكان: فمرتبط بعامل الزّمان؛ حيث كان سماع اللّغة طيلة القرون الثّلاثة الأولى من أهل البدو والحضر على حدّ سواء؛ ذلك أنّ اللّحن لم يفشُ بعدُ.

وأمّا بعد منتصف القرن الثّاني للهجرة فقد توقف السّماع عن أهل الحضر، واستمر الأخذ عن أهل البدو، حتى القرن الرابع للهجرة أين توقفت المشافهة ألبتة.

وفي هاته المرحلة الزمنية الثانية ظهر اختلاف منهج البصريين والكوفيين؛ حيث قصر البصريون أخذهم على ستّ قبائل فقط تقع في أواسط شبه الجزيرة العربية وهي: قيس، وتميم، وأسد، وهذيل، وبعض كنانة، وبعض الطّائيين، بينما توسّع الكوفيون وأخذوا من كل القبائل العربية، حتى إنّهم سمعوا من أعراب سَوَاد الكوفة، وسَوَاد بغداد.

وفي هذا الصدد يقول السيوطي (911هـ) -فيما نقله عن الفارابي-: «...والذين عنهم نُقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب، هم: قيس وتميم وأسد؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أُخِذ ومعظمه، وعليهم اتُّكِل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم». (2)

والذي ينبغي علمه أن نصّ السيوطي يصوّر لنا منهج البصريين فحسب دون الكوفيين؛ فالثابت أن هؤلاء توسّعوا في أمر السماع على ما ذكرنا آنفًا، وقد عابهم في ذلك البصريون كثيرًا.

---

(1) علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص: 33.

(2) السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 47.

ثانيا: القياس.

يعدّ القياس الأصل الثّاني من أصول النّحو، وإذا كان السّماع يمثل الأصل النّقلي له، فإنّ القياس يمثل الأصل العقلي.

ويبدو أنّ مصطلح "القياس" قديم قدم النّحو ذاته؛ فقد ظهر في فترة مبكرة من تاريخه، ونسب إلى النّحاة الأوائل استخدامه كعبد اللّه بن أبي إسحاق الحضرمي، وجيله من النّحاة.

وقد قام القياس في هذه المرحلة المتقدّمة على ملاحظة الظّواهر المطّردة، ووضع ضوابط تحكم هذه الظّواهر، وما يأتي على مثالها، ثمّ عرف القياس تطوّرًا إلى أن وصل إلى ما يشبه المنطق، والجري خلف العلل، والعوامل، ومع هذا فإنّ للقياس أهمية بالغة في تاريخ النّحو العربي، وإرساء قواعده وأحكامه.

تاريخ نشأة القياس مقرون بتاريخ نشأة القواعد العربية نفسها، ولهذا يعزو بعض الدارسين نشأة القياس إلى أبي الأسود الدؤلي. وعلى الرّغم من أنّ تلك الدعوى تفتقد إلى الأدلة إلّا أنّ لها دلالة واضحة على قدم القياس في تاريخ النّحو العربي، وأنّه كان منهجًا يأخذ به النحاة منذ البدايات الأولى لعلم النحو.

ويمكن تلخيص مراحل تطور القياس النّحوي في ثلاث: [1]

1-مرحلة النشأة: أمّا البداية الحقيقية للقياس فكانت مع "عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي"، فلم يُعدْ النّحو عنده مجرّد ملحوظات عابرة، بل أخذت معالمه تتحدّد، فظهر القياس على يديه واشتهر به منذ القدم، حتى قيل عنه: "إنّه أول من بعج النّحو، ومدّ القياس، وشرح العلل" وأنه "كان أكثر تجريدًا للقياس". [2]

وقد حوّل القياس من الجانب الاستعمالي الذي يقوم على محاكاة الجمل العربية في الاستعمال ليشمل القياس النّظري النّحوي وهو قياس حكم على حكم، ووضْع العلل بطريقة بسيطة.

وقد كان الحضرمي يسعى إلى اطّراد القاعدة عن طريق تحكيم القياس في مسائل النّحو، فشكّل بذلك انعطافا كبيرًا في الدّرس النّحوي؛ لأنّ القوم قبله كانوا يُعنَون باللّغة من جمعٍ لها، وفهمٍ لغريبها، وإحاطةٍ بلهجاتها، أمّا هو فقد أخذ ينفذ إلى دقيق تعبيرها، ويلمح اطّراد أصولها، وراح يوجّه طلبته إلى هذا اللّون من النّظر في دراسة العربية، وتعمّق الأصول التي تطّرد، وتنقاس.

---

(1) ينظر تفصيلها: محمد سالم صالح: أصول النحو "دراسة في فكر ابن الأنباري"، دار السلام، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص: 57-70.

(2) ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، ص: 30.

ففضله يتّضح في التّنبيه على هذا المبدأ الأساس من مبادئ التّفكير العلمي وهو اطّراد الظّواهر والقياس عليها، كما شرّع منهجًا جديدًا وهو تأويل الشّواهد وتوجيه السّماع توجيهًا يرتضيه العقل النّحوي الجديد، ويوافق الأصول الموضوعة.

وبهذا يكون القياس عند "**الحضرمي**" قد بلغ مرحلة هامة من النّحو؛ إذ إنّه بدأ عنده بملاحظات فردية يمليها تصوّره الخاص لفهم القاعدة، وتحوّل فيما بعد إلى سبيل دافق من ربط الأشباه بالنّظائر إدراكًا لِكُنْه اللّغة، ومدى ما يربط ظواهرها من وشائجَ وصلات.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المفهوم الذي وجد عند "الحضرمي" هو المفهوم الاستقرائي المبسط للقياس؛ إذ «يرتكز على مدى اطّراد الظاهرة في النصوص اللغوية مروية أو مسموعة، واعتبار ما يطّرد من هذه الظواهر قواعد ينبغي الالتزام بها وتقويم ما يشذّ من نصوص اللغة عنها». [1]

فالنّصوص التي استخدم فيها القياس في هذه الفترة تدلّ على أنّه لم يكن قياسًا منطقيًا بشروطه ومقدماته وقضاياه، بل ما يقدّمه العلم بالقواعد المطّردة، وهكذا كان أمام النّحاة بعد تحديد المفهوم الاستقرائي للقياس تحديد معنى الاطّراد، ومن ثمّ تحديد أسلوب استقراء النصوص اللّغوية، وضوابطه.

2-مرحلة المنهج: في هذه المرحلة صار القياس أصلًا في الدّرس النّحوي، ونجد ذلك واضحًا عند "**الخليل بن أحمد**"[2]، فبلغ القياس على يديه وتلميذه من بعده مستوى النّظرية المتكاملة؛ إذ استطاع من خلال عنايته بالقياس أن يُوجِدَ النّحوَ علمًا له أصوله وقواعده، وقد أصّل القياس وأظهر معالمه وأركانه.

وأرشده حسّه اللّغوي واستقراؤه للّغة إلى معرفة الأصول والفروع، وهذه الفكرة هي عماد القياس، وأولى هذه الفكرة عناية شديدة، ولكنّها لم تكن من قبل تسليط الاعتبارات العقلية على اللغة، ودائما هي أحكام، وقوانين مستنبطة من استقراء اللّغة، فبنى قياسه على الكثرة المطّردة من كلام العرب، مع نصّه الدّائم على ما يُخالفه، ومحاولته في أكثر الأحيان أن يجد له تأويلًا.

واتّخذ القياس عند "**الخليل**" صورًا وأشكالًا مختلفة تُظْهِر ما وصل إليه القياس من نضجٍ على يديه. ومن صوره ما يمكن أن يسمّى: قياس الشّبه (المنزلة)، وقياس التّمثيل(الغرض)، وقياس المفارقة. [3]

وقد أكثر "**سيبويه**" -على غرار أستاذه -من الاعتماد على القياس، وبناه على أساس صحيح من السّماع سواء أكان ذلك من العرب الفصحاء أم من عند شيوخه الثّقات.

---

(1) علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص:27.

(2) ينظر نماذج من أقيسته عند: شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص: 53، 54.

(3) ينظر: محمد سالم صالح: أصول النحو "دراسة في فكر ابن الأنباري"، ص:61، 62

وقد كان "سيبويه" متشدّدًا في قياسه، وظاهر كتابه يشهد بكثير من مظاهر هذا التّشدد؛ فهو يكرّر كثيرًا عبارات من مثل: "لا ينبغي لك أن تقيس على الشّاذ المنكر في القياس"، ويقول: "ونقيس على الأكثر"، ويقول أيضا: "فإنّما هذا الأقل نوادر تحفظ عند العرب، ولا يقاس عليها، ولكن الأكثر يقاس عليه".

وما كانت صور القياس عند سيبويه تخرج عن صور القياس عند أستاذه، فهي نفسها. (1)

وفي المرحلة التي تلت سيبويه بدأ القياس يبتعد عن واقع اللّغة، ممّا أضفى عليه صفة الجمود، وأصبح لا يحاكي الواقع اللّغوي بمقدار ما يحاكي تفنّن النّحاة في استخدامه وسيلةً لإمضاء أحكام عقلية بحتة.

3-مرحلة التّنظير: تتمثل بصورة جلية فيما ألّفه "**أبو البركات الأنباري**"؛ إذ تأثّر بالبحوث الفقهية من حيث المنهج والتّعريف والتّفريع، فصنّف كتابًا في أصول النّحو حدّه على حدّ أصول الفقه، فعندما نوازن بين كتاب في أصول الفقه، وبين كتابه نجد بينهما من المناسبة ما لا يخفى، فكلا العلمين معقول من منقول.

ثالثا: التّعليل.

التعليل في عمومه يعني بيان علّة الشيء، وتقرير ثبوت المؤثِّر لثبوت الأثر.

والتعليل في النحو هو: تفسير اقتراني يبيّن علّة البناء والإعراب على الإطلاق وعلى الخصوص، وفق أصوله العامة.

مرّ التّعليل النّحوي بأربع مراحل، لكل مرحلة ملامحها المميزة التي تحدّد الامتداد الزّمني لها. وهذه المراحل هي: (2)

*المرحلة الأولى: مرحلة النّشوء والتّكوين

* المرحلة الثّانية: مرحلة النّمو والارتقاء.

* المرحلة الثّالثة: مرحلة النّضج والازدهار.

* المرحلة الرّابعة: مرحلة المراجعة والاستقرار.

1/ مرحلة النّشوء والتّكوين

(1) محمد سالم صالح: أصول النحو "دراسة في فكر الأنباري"، ص: 63.

(2) ينظر تفصيلها عند: حسن خميس الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 2000، ص: 257-265.

تعود إرهاصات التّعليل الأولى إلى روايات وضع النّحو العربي التي تشير إلى إدراك واضع النّحو – أيًّا كان – خطر الانحراف عن سَنَن العرب في كلامها، وضرورة استنباط قوانين مطّردة، يقيس النّاس عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه.

وتتّصل البداية الحقيقية للتعليل بـ "**عبد الله بن اسحاق الحضرمي**"(117هـ)، فقد قيل عنه إنّه: "**أوّل من بعج النّحو ومدّ القياس وشرح العلل.**" وتنتهي هذه المرحلة بظهور الخليل بن أحمد الفراهيدي مُفتتحًا بذلك مرحلة النّمو والارتقاء.

وارتبطت نشأة التّعليل بنشأة النّحو ذاته، فولّد إحساسًا فنيًّا يرفض بعض الاستعمالات النّحوية، ثمّ أصبح تعبيرًا اصطلاحيا يفسّر ذلك الرّفض بالقاعدة النّحوية.

2/ مرحلة النّمو والارتقاء:

تتمثل هذه المرحلة بما وصل إلينا من آثار نحوية من عهد الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ)، حتى نهاية القرن الثّالث الهجري. ومن أسماء النّحويين البارزة في هذه المرحلة: سيبويه، والمبرّد، وابن كيسان.

واتّضح في هاته المرحلة أنّ القاعدة النّحوية كانت العلة الأولى في النّحو كتعليل رفع "زيد" في قول "زيد عربي" بأنّه مبتدأ. كما اتّضح أنّ النّحاة مثل الخليل وسيبويه والمبرد اتّخذوا من اشتراك عدّة أبواب نحوية في حكم نحوي واحد علة في إثبات صحة الحكم النّحوي كتعليل رفع المبتدأ برفع الفاعل.

وبرز في هذه المرحلة أيضًا الاعتداد بدلالة الحال وسياق الكلام في تعليل بعض الظّواهر النّحوية كالحذف مثلًا.

3/ مرحلة النّضوج والازدهار:

ويؤرخ لها من القرن الرّابع الهجري حتى إطلالة القرن السّابع الهجري؛ حيث بدأت تظهر منذ القرن الرابع الهجري مُحاولات لوضع أُطر منهجية نظرية لجوانب من نظرية النّحو العربي، بالاعتماد على استقراء مادة النّحو العربي بأبوابه وأحكامه ومسائله وجزئياته في الكتب الأولى، لاسيما كتاب "سيبويه" للانتقال بالنّظرية النّحوية من مرحلة الأعراف غير المكتوبة إلى مرحلة البنود المكتوبة شبه القانونية التي يترسّمها النّحاة في درسهم النّحوي.

فالنّضج في هذه المرحلة نقلة منهجية نحو التّنظير، ينتهي بخفوته عند مجمل النّحاة مع إطلالة القرن السّابع الهجري.

ومن أبرز نحويي هذه المرحلة الذين عُنوا بالتّعليل: ابن السّراج (316هـ)، والزّجاجي (337هـ) صاحب كتاب "العلل في النّحو"، والسّيرافي (368هـ)، والرّماني (384هـ)، وابن جني (392هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (له مصنف العوامل المئة)، والدينوري (490هـ)، وابن الأنباري (577هـ) وغيرهم كثر.

وأهم ما يميّز هذه المرحلة أمران:

الأوّل: تحوّل اعتماد القياس الشّكلي على اتّحاد الحكم النّحوي-وإن اختلفت العلل أو تناقضت عند الرّماني-إلى الاعتماد على اتّحاد العلة والحكم في القياس الشّكلي في النّحو عند ابن الأنباري والعكبري (616هـ)

الثّاني: ظهور كتب نحوية خاصة بالتّعليل كـ "علل النّحو" لابن الورّاق، واللّباب في علل البناء والإعراب للعكبري (616هـ) تُعنى بصياغة أحكام النّحو وفق العلل، فغايتها تبيين علل النّحو لتكون هذه العلل وسيلة لتثبيت الحكم النّحوي.

ورافق ازدهار التّعليل في هذه المرحلة **بروز اتّجاه معارض** للتّزيّد في التّعليل النّحوي **في الأندلس** رغبة في تيسير النّحو التّعليمي بالتّخفيف من العلل التي تنتمي إلى نظرية النّحو، لا النّحو بأحكامه التّطبيقية، وبالتقليل من شيوع المصطلحات الفلسفية المنطقية في الدّرس النّحوي كما هو عند ابن الطّراوة (528هـ)، والسّهيلي (581هـ)، أو خدمة للمذهب الدّيني كما عند ابن مضاء القرطبي (592هـ) الذي دعا إلى نحو ظاهري -كمذهبه الفقهي-فهو يَنْفُر من كل حكم نحوي لا يفيد نطقًا ومن القياس الشّكلي، والتّعليل النّظري، وتقدير مالا يوجد في ظاهر الكلام. [1]

4/ مرحلة المراجعة والاستقرار:

منذ القرن السّابع الهجري تقريبا أصبحت كتب النّحو في غالبها تسعى إلى جمع المستطاع من علل النّحو ومناقشتها ومراجعتها والتّرجيح بينها، أو استنباط علل جديدة، فاتّسمت هذه المرحلة بكثرة العلل، لاسيما علل نظرية النّحو، مع ظهور الخلاف في المصطلحات والألفاظ فجاءت بعض الكتب المتأخرة مثل "التّصريح على التّوضيح" لخالد الأزهري (909 هـ)، و"حاشية الخضري على شرح ابن عقيل" خليطًا من أحكام النّحو وعلله ومصطلحاته وخلافاته، بل إنّ أحكام النّحو تتضاءل أمام العلل والخلافات.

وتغلغلت المصطلحات الفلسفية في أعمال بعض النّحويين مثل ما جاء في كتاب "الإرشاد إلى علم الإعراب" للكيشي (625هـ) الذي عوّل فيه على مصطلحات الفلسفة والمنطق بخاصة في التّعليل.

---

(1) ينظر: ابن مضاء القرطبي: الرد على النحاة، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، (د. س)، ص: 130، وما بعدها.

وازدادت في هاته المرحلة الشّكوى من صعوبة النّحو، وظهرت محاولات لتيسيره وإصلاحه بتأليف المتون التي تنأى عن الخوض في علل النّحو.

رابعا: التّأويل.

التأويل منهج أصيل في الفكر العربي الإسلامي، أخذ مسلكه إلى علوم عديدة -ولاسيما الشرعية-منها: علم التفسير وأصول الفقه، لينتقل بعدها إلى بيئة النحاة بصفته أحد أهم أساليبهم المعتمدة في تعاملهم مع النصوص اللغوية المسموعة التي يخالف ظاهرها ما تواضعوا عليه من أحكام.

والّذي يعنينا هنا إنّما هو تأويل النحاة. ويعرّف -على مذهبهم وفي أبسط صوره-بأنه «تبيين النّص بصورة تجعله آخر الأمر متّفقًا مع القواعد المتبّعة». [1]

يظهر من هذا التعريف أنه من ضبط المحدثين؛ ذلك أن المتقدّمين من النحاة اعتمدوا التأويل عمليًا [2] وظلّ مفهومه مقيّدًا في فكرهم، وربّما كان ذلك لوضوح دلالته عندهم.

وقيل إنّ «التأويل هو محاولة إرجاع النصوص التي لم تتوافر فيها شروط الصحة نحويًا إلى موقف تتّسم فيه بالسلامة النحوية، أو بتعبير آخر هو: صبّ ظواهر اللغة المنافية للقواعد في قوالب هذه القواعد».[3]

ويحيلنا التعريفان على ندّين مهمّين هما: القاعدة النحوية، وكلام مسموع يخالفها، فسعى النحاة إلى جعل ذلك الكلام موافقًا للقاعدة النحوية باعتماد أحد أساليب التأويل المتعارف عليها بينهم، بما يضمن صحة كلا الأمرين: القاعدة والنّص.

«والحامل على التأويل أن اطراد القواعد أمر ضروري للحكم بصحتها، ولما كان إدخال ظواهر اللغة جميعها تحت إطار واحد أمرًا عسيرًا تمنعه طبيعة اللغة ذات الظواهر المختلفة، ومستويات التعبير المتباينة لجأ دارسوها إلى التأويل لحفظ ذلك الاطراد، ومقصدهم من ذلك بإيجاز: ردّ ما يخرج عن إطار اللغة العام إليه». [4]

بل الصواب أن يقال: إن هدف النحاة الأصيلَ من التأويل إنّما هو تصحيح قواعدهم التي ذكروها عن طريق تسويغ ما يختلف مع هذه القواعد من نصوص تقبل التسويغ ورفض ما سواها. [5]

وتعليل الاختلاف بين القاعدة والنص يقود إلى نتيجتين مهمّتين: صحة القواعد، وسلامة النصوص. [6]

---

(1) علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص:232.

(2) ينظر: حسام أحمد قاسم: الأسس المنهجية للنحو العربي: "دراسة في كتب إعراب القرآن"، ص:71، وما بعدها.

(3) علي أبو المكارم: الحذف والتقدير في النحو العربي، دار غريب، القاهرة، مصر، ط2008، ص: 204.

(4) محمد بن عبد الرحمان السبيهين: مسائل الخلاف النحوية في ضوء الاعتراض على الدليل النقلي، ص: 423.

(5) علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص: 232.

(6) ينظر: علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص: 233.

وهذا يعني أن النحاة يحافظون على صحّة قواعدهم فيحيطونها بسياج، ويصبّون النصوص –المخالفة في المقابل–في قوالب تجعلها موافقة للقاعدة.

وهذا الفعل يضمن للنصوص صِحَّتها، وعدم الطعن فيها من جهة السّند، ممّا يعني أنّها تقع في عصر الاستشهاد اللغوي، لا يصحّ رفضها أو تخطئتها، [1] فهي سليمة من الجوانب كلّها إلّا من جهة مقابلتها بالقاعدة. فيلجأ النحاة إلى «تأويل النصوص المخالفة للقواعد تأويلًا يبعد بها عن التأثير في القواعد ذاتها؛ إذ يفسّرها ويصوغها بشكل ينأى بها عن معارضَتها، أو يضعف من قيمة هذه المعارضة ويلغي أثرها». [2]

ولأجل ذلك حشد النحاة أساليب كثيرة لردّ النصوص إلى القاعدة، منها: الحذف، والإضمار، والزيادة، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف، وحتى التضمين.

وما ينبغي التنبيه عليه أن التأويل لم يكن يقع من النحاة عبثًا، وإنما كان يخضع لشروط، أهمها:

1–أنه لا يتأوّل ما كان لغة للعرب، وهذا مذهب أبي حيّان على نحو ما سنفصّل فيه.

2–أن يكون الكلام المتأوّل ممّا يحتج به، واقعًا في عصر الاستشهاد اللغوي، فإن خرج عن إطاريه الزماني والمكاني وصف باللحن والخطأ. [3]

3–ألّا يبلغ التأويل من التّكلف حدًّا يخرج به عن المستساغ، وإلّا فهو مردود. [4]

وبالرغم من أنّ صور التأويل الواردة في كتب النحاة قد يحمّل بعضُها النصوصَ اللغوية من التقديرات ما لا يستطيع العقل تقبله، إلّا أنّه يُعدّ –على مذهب جمهور النحاة–أفضل من حملها على الشذوذ [5]؛ ذلك أن تأويلها يجعلها موافقة للقواعد المتعارف عليها، وأمّا الحمل على الشذوذ وإن كان لا ينافي الصواب، فإنه يجعل الشواهد خارجة عن المتواتر من النصوص، والأحكام.

2–النّحو العربيّ بين الوصفية والمعيارية.

(1) ينظر: مر.ن، ص.ن.

(2) ينظر: مر. ن، ص. ن.

(3) محمد بن عبد الرحمان السبيهين: مسائل الخلاف النحوية في ضوء الاعتراض على الدليل النقلي، ص: 424.

(4) مر. ن، ص. ن.

(5) ينظر: علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص: 231.

لعلّ الحقيقة المتأصلة في النحو العربي أنه نحو وصفي، خلاف ما يشيع من القول بمعياريته المطلقة، وفي ذلك دلائل كثيرة فصّلها الأستاذ "عبده الراجحي" في كتابه (النحو العربي والدرس الحديث) منها: [1]

1.2-منهج اللغويين في جمع اللغة وتحديد الإطارين الزماني والمكاني للجمع هي من سمات المنهج الوصفي؛ الذي يقتضي دراسة اللغة في زمان ومكان محدّدين. وهذا المنهج الذي اتبعه اللغويون كان يتّصل بواقع الاستعمال اللغوي اتّصالًا مباشرًا؛ ذلك أنهم كانوا حريصين على المشافهة في نقل المسموع من أفواه الناطقين به دون تغيير، وظلّ ذلك المنهج مستمرًّا حتى القرن الرابع للهجرة زمن ابن جني (392هـ).

2.2-نقط الإعراب الذي وضعه أبو الأسود الدؤلي حماية للنص القرآني من اللّحن هو من صميم المنهج الوصفي، قائم على الملاحظة فالوصف فالتقرير؛ إذ فيه وصف لحركة الشفاه حال النطق بأواخر الكلمات، وتثبيتها في المصحف الشريف: نقطة فوق الحرف دلالة على الفتحة، ونقطة تحت الحرف دلالة على الكسرة، ونقطة بين يدي الحرف دلالة على الضمة، حتى إنّ تسمية الحركات الإعرابية باصطلاح الفتحة والكسرة والضمة ناتج عن وصف حركة الشفاه: أليس في الفتحة انفتاح الشفتين، وفي الكسرة انكسار الشفة السفلى، وفي الضمة ضم الشفتين؟

2.3-كما يظهر الاتجاه الوصفي في كثير ممّا قرّره النحاة الأوائل من أحكام «فالحقّ أنّ ما قرّروه لم يكن كلّه تأويلًا أو تقديرًا أو تعليلًا، إنّما كان فيه وصف تقريري محض...والمتتبع للكتاب يرى أنّ سيبويه قد أقام قواعده في أغلبها على الاستعمال اللغوي ...». [2]

كما يدلّ على ذلك عدم إغفاله اللهجات العربية المتعددة، وإيراده تعدّد الاستعمالات اللغوية تبعًا لتعدّد القبائل العربية. وكلّ ذلك من صميم المنهج الوصفي.

وقد يقال إنّ تقييد التقعيد النحوي بالإطارين الزماني والمكاني فيه إجحاف بمجتمعات لغوية كثيرة، وعدم مراعاة المنحى التطوري للّغة.

ويجاب على ذلك من جهة أن التقعيد يقتضي تحديد مجتمع مثالي للغة المقصودة، وما ذلك بمقصور على النحو العربي. وقد رأى البصريون أن ذلك المجتمع ينحصر في حيّز مكاني لا يجاوز أواسط شبه الجزيرة العربية عند قبائل ست هي: قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين مراعاةً لمعيار الفصاحة

(1) ينظر: عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث "بحث في المنهج"، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1979، ص:53، 54.

(2) ينظر: مر. ن ص:56.

وتوسّع الكوفيون في ذلك فسمعوا من كلّ لغات العرب على أساس أن اللحن حتى منتصف القرن الثاني للهجرة لم يتفشَّ بعد إلى الحدّ الذي يستدعي ترك الأخذ عن العرب جميعًا.

ويبرر موقفهم ذاك أمر آخر أن التقعيد ارتبط بلغة القرآن من حيث هي لغة على درجة عالية من الفصاحة، فحاول النحويون اختيار نصوص اللغة الأدبية المشتركة في التقعيد. وإن كانوا لم يسلموا من الخلط بين مستويي اللغة الأدبية ومستوى اللّهجات.

وأمّا تقييد اللغة بمعيار الزمان وما يعاب فيه على اللغويين والنحاة إهمال المنحى التطوري للغة، فيبدو جوابه جليًّا، ويكفينا أن نسألهم: هل كان داء اللحن الذي نخر جسد الأمة العربية تطوّرًا حاصلًا، أم إننا لا نراوح مقولة الخطأ الشائع والصواب المتروك؟ على اعتبار أن فريقًا من أنصار علم اللغة الحديث لا يراوح باب الوصفية «غايته وصف ما هو كائن ممّا يتكلّمه الناس بالفعل، لا ما يجب أن يتكلّموه دون التورط في مسائل الصواب أو الخطأ» [1] وهو ينظر إلى اللغة على أنها «ظاهرة متطورة، وإنّ ما قد ينظر إليه على أنه لحن وتحريف ليس إلّا صورة التطور والتغير اللذين يلحقان باللغة على فترات الزمن».

ومع التسليم بصواب مذهبهم إلى حدّ ما، إلّا أن ما فعله اللغويون والنحاة العرب كان أنفع للغة العربية لغة القرآن؛ فالحن داء استدعى من أرباب العربية فرض ما يشبه الحجر الصحيّ على الأماكن التي لم يصلها ليستلهموا منها مصل النجاة من وباء اللحن. وقد لا يعي كثيرون كيف أضحت العربية على ألسنة المولدين والأعاجم، بله العرب ذاتهم في القرن الرابع الهجري. ويكفينا في هذا المقام العودة إلى كتاب "البيان والتبيين "للجاحظ في جزئه الأول حيث رصد لنا أمثلة غير قليلة من اللحن، وتباين لهجات العامة والخاصة، ومستويات الكلام وما يناسبها من المستويات الاجتماعية.

إن ذلك الواقع اللغوي المحكي يجعلنا نسلّم بسلامة منهج النحويين، فلولاه لصارت العربية هباءً منثورًا.

ولعله عند هذه العتبة صار النحو معياريًا، ويبدو التحوّل من الوصف إلى المعيار نتيجة حتمية للحن الذي غمر العامة والخاصة، فأي لسان سيوصف، ويقعّد له؟

وعلى هذا فالقواعد معايير لالتزام الصواب وتجنب الخطأ، وتحصيل العربية ما عاد ممكنًا بالسماع، بل بالتعلم والاكتساب، وأفضل السبل إلى ذلك "علم النحو".

وبعد كلّ ما ذكرناه عن وصفية النحو العربي ومعياريته يروق لي أن نسلّم برأي الأستاذ "عبد السلام المسدي" في المسألة، فالحق أن البحث في ثنائية الوصفية والمعيارية قد انطلق من مبدأ مغلوط فيه، وهو

---

(1) هادي نهر: اللسانيات الاجتماعية عند العرب، دار دروب، عمان، الأردن، ط2011، ص: 169.

اعتبارهما شحنتين متنافرتين حتى اعتبر بعضهم أنّ اللساني حيث يلتزم بالوصفية يتحتّم عليه الطعن في المعيارية. (1)

والصواب أنهما «مقولتان لا تنتميان –على صعيد فلسفة المعارف –إلى نفس المنطلق المبدئي، ولا إلى نفس الحيّز التصوّري، وليس لزامًا أن تقوم بينهما علاقة ما من توازٍ أو تصادم أو تطابق، فهما مصادرتان فكريتان مستقلة كلتاهما عن الأخرى.

فأن يلتزم اللساني في تحسّسه نواميس الظاهرة اللغوية وصف مدوّنتها واستقراء خصائصها دون تعسف منه على الاستعمال فذاك موقف منهجي وامتثال اختباري، أمّا أن يصدح نفس اللساني في تقرير أحوال الاستعمال بأنّ هذا الخروج عن النمط، وهذا اتفاق مع سنن المواضعة في اللغة فذلك موقف مبدئيّ وامتثال معياريّ، وليس من تناقض بين الأمرين؛ لأنهما موقفان لا يقعان البتّة في نفس اللحظة الزمنية، وبالتالي فإنّ الذي يصوغهما ليس هو نفس الشخص من الناحية الاعتبارية». (2)

(1) ينظر: عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية، تونس، ط1987، ص: 14، 15.

(2) مر. ن، ص: 15.

المحاضرة 5:

المدارس النحوية في المشرق والمغرب:

التقسيم الجغرافي والسياسي.

المحاضرة الخامسة: المدارس النحوية في المشرق والمغرب: التقسيم الجغرافي والسياسي.

تمهيد:

عرف النحو العربي مذاهب متنوعة، تختلف في مناحيَ متعدّدة، ولكنّها تتّفق في الغاية وهي التقعيد للغة العربية وإحكام قواعدها على أسس منهجية قويمة.

واشتهر من المذاهب أربعة: المذهب البصري، والكوفي، والبغدادي، والأندلسي. ولعل السؤال الّذي قد يحيّر أي مبتدئ في هذا العلم هو: على أيّ أساس جاء تقسيم المذاهب أو المدارس النحوية باصطلاح المحدثين؟

قد يبدو الجواب على هذا السؤال جليًّا؛ فالظاهر أنها أخذت تسمياتها من البيئات الجغرافية التي نشأت فيها، فالنحو البصري نشأ في البصرة، والكوفي في الكوفة، والبغدادي في بغداد، وما إلى ذلك. ولكن هل تقف الفوارق بين هذه المدارس عند هذا الحدّ فحسب؟

الصواب أن في التقسيم اعتبارات عديدة تتصل أكثر بالجانب المنهجي للدراسة أكثر من ارتباطها بالجانب الجغرافي والسياسي. وسنحاول في هذه المحاضرة استجلاء ما أمكننا من ذلك

- **أسباب تباين المدارس النحوية، وانقسامها:**

إذا أردنا استجلاء أسباب تباين المدارس النحوية فعلينا أن نبحث أولا في أسباب تباين المدرستين البصرية والكوفية على اعتبار أنهما تمثلان الاتجاهين البارزين في تاريخ النحو العربي برمته؛ وهذا يستدعي بالضرورة الأخذ بعين الاعتبار المرجعيات التاريخية والدينية والثقافية لمدينتي البصرة والكوفة ومدى تأثيرها في المدرستين، وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بالأسباب غير المنهجية للتباين، ويمكن إيجازها فيما يأتي:

أ-تباين الطابع العلمي للمدينتين: غلبة الدراسات العقلية في مدينة البصرة مثل علم المنطق والفلسفة وعلم الكلام جعلت النحو البصري يصطبغ بصبغة العقل، فكثرت فيه العلل والعوامل والاحتكام إلى القياس العقلي، كما تأثرت المصطلحات النحوية البصرية بمصطلحات علم الكلام والمنطق. بينما غلبت الدراسات النقلية في الكوفة كالقراءات القرآنية ورواية الأشعار والأخبار، ممّا جعل نحوها يتّسم بكثرة الرواية، والعناية بالشواهد المسموعة، وقلة التأثر بالعلوم العقلية.

ب-التعصب الديني: ظهر التنافس بين البصريين والكوفيين في وقت بلغ فيه علم الكلام ذروته، وتباينت الملل والنحل، وظهرت الفرق الكلامية المتعدّدة.

ولمّا كان النحاة يعيشون في هذه البيئة –لاسيما البصريين منهم–فقد اتّبع أكثرهم مذاهب كلامية متباينة، أثّرت بشكل أو بآخر في خلق فوارق بين النحاة، ولاسيما في أساليب الحِجاج والجدل والمصطلحات، وحتى في استثمار اللغة في الانتصار للمذهب المتّبع. (1)

ووصل الأمر إلى أبلغ من هذا، فالعصبية الدّينية أثّرت حتى في جانب الرواية؛ فقد روي عن اللغوي البصري علي بن حمزة (375هـ) أنه كان شديد العصبية على جماعة من الشعراء لعلل؛ فعِلّة الشاعر ذي الرِّمة اعتقاده العدل، وكان الأصمعي جبريًّا، وقيل لأبي عثمان المازني: لِمَ قلَّت روايتك عن الأصمعي؟ قال: «رميت منه بالقدر، والميل إلى مذهب الاعتزال». (2)

وقد كان من أثر اعتزالية كثير من النحاة أن حكَّموا عقولهم، وجعلوا النقل تابعًا لها، مع أن العقول تتفاوت في إدراك الأشياء؛ فما يراه عقل هذا صوابًا لا يراه عقل ذلك كذلك، وهذا أثّر في خلق الاختلاف في التقعيد النحوي ليس بين المدرستين فَحسب، بل حتى بين أعلام المدرسة الواحدة؛ فقد ظهر في المدرسة البصرية في زمن مبكر اتجاهان متباينان: اتجاه يخضع النقل للقياس، ويمثّله عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي(117هـ) وهو الذي استمرّ في النحو البصري، واتجاه يسلم إلى النقل يمثّله أبو عمرو ابن العلاء(154هـ). (3)

وبقي تأثير الاعتقاد في اختلاف النحاة اللاحقين لأعلام المدرستين: «فهذا أبو علي الفارسي يقرّر باللغة آراء مذهبه الاعتزالي في كتابه "الإغفال" ويردّ على اعتقادات الزّجاج السّنية، وهذا أبو حيّان الأندلسي كان شديد الانتقاد للزمخشري لاعتزاله، وطول لسانه على أهل السّنة». (4)

ويقرّ الأستاذ مصطفى صادق الرفاعي بأثر العقيدة في النحو فيقول: «ولايزال يكون مثل ذلك في العلماء الّذين يجعلون العلم وراءَ العقيدة، فهم إذا انتحلوا مذهبًا يميّزهم في طائفة من الأضداد، ذهبت ريحهم بهذا التضاد، فصرفوا العلمَ إلى جانب الهوى فيه، ويبغون الغوائل بمن يعترضه دافعًا أو مدافعًا، ولابد

(1) ينظر: نوري المسلاتي: أسباب اختلاف النحاة من خلال كتاب الإنصاف لابن الأنباري، دار ابن حزم، بنغازي، ليبيا، ط1، 2010، ص: 68.

(2) ينظر: مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط6، 2001، 1/ 414.

(3) ينظر: تمّام حسان، الأصول، ص: 36، 37.

(4) ينظر: نوري المسلاتي: أسباب اختلاف النحاة من خلال كتاب الإنصاف لابن الأنباري، ص: 71، 72.

في التّسبب لذلك من ضغن علمي يرونه حلالا بيّنًا، فإن كان فيه مكروه من النفاسة والتخذيل فكراهة تحليل...». [1]

جـ-التّعصب البيئي: ليس ثمّة إجماع بين الدارسين المحدثين على تأثير التعصب البيئي في اختلاف المذاهب، فمنهم من يرى أن لا تأثير له أو أنه قليلٌ، [2] ومنهم من يذهب إلى أنه أثّر، ويستدلون لذلك بحُظوة الكوفيين لدى العباسيين؛ فالمعروف من تاريخ المدينتين أن البصرة كانت عثمانية الولاء، والكوفة علوية، ثم أصبحت البصرة أموية والكوفة عباسية، بل إن الكوفة هي التي احتضنت دولة بني العباس ودعمتها، وكان هذا سببًا في تقريب بني العباس للنحويين الكوفيين، وتخصيصهم بتربية أولادِهم. [3]

ويظهر تأثير التعصب أكثر في الحكم في المناظرات التي وقعت بين الكوفيين والبصريين من قبل بعض الأعراب الذين كانوا أميل إلى مَنْ كان مُقرَّبًا أكثر لدى العباسيين، ويقال: إن أشهر ما يدلّ على ذلك المسألة الزنبورية التي حكم فيها عرب الحطمية للكسائي على سيبويه لدى هارون الرشيد. [4]

د-حب الغلبة والرغبة في التميّز: يكفينا في هذا المقام أن نستدل بقول الأستاذ مهدي المخزومي: «... وأكبر الظن أنّ التنافس بين نحاة المصرين إنما ظهر في عهد الكسائي وسيبويه، وكان هناك من الأسباب ما حمل الكسائي على مخاصمة سيبويه، وأقواها: خوفه من أن يتقرّب سيبويه أو غيره من البصريين من السلطان فيفقد الحظوة لديه». [5]

فقوله هذا دليل كافٍ على أنّ العوامل الذاتية كان لها أثر في إذكاء الرغبة في الغلبة بمخالفة الخصم، ودحض آرائه.

وللأستاذ "سعيد الأفغاني" قول آخر يدعم هذا الرأي. يقول: «اجتهد المقرّبون [الكوفيون من خلفاء بني العباس] في التمسك بدنياهم التي نالوها، ووقفوا بالمرصاد للبصريين الذين يفوقونهم علمًا، فحالوا بينهم وبين النجاح المادي أو المعنوي بكل ما يستطيعون من قوة، وإذا كان لبصري كالأصمعي مثلًا حظوة عند خليفة

---

(1) ينظر: مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، 1/ 414.

(2) ينظر: محمد عيد: الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار القلم العربي، (د. ط)، حلب، سوريا، ص: 74، 75.

(3) ينظر: نوري المسلاّتي: أسباب اختلاف النحاة، ص: 85، 86.

(4) ينظر: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة، ص: 101.

(5) مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: 67.

ولم يقدروا على إبعاده مادّيًا، اجتهدوا في الغض من علمه... ولا تستغربن أن تكون الحدة والعصبية أظهر على الكوفيين وحب الغلبة عندهم أشدّ؛ إذ علموا علم اليقين أن علمهم إزاء علم البصريين قليل، ولذا كان الخطر من هؤلاء ماثلًا أمام الكوفيين، ولعين الكسائي منهم بخاصة، ولم يروَ عن كوفي عنف مثل عنف الكسائي هذا، ولا حرص على الإجهاز على الخصم المنافس كما روي عنه». (1)

والمطّلع على المناظرات التي جمعت الكوفيين والبصريين في مجالس بني العباس يتثبّت من حقيقة أن حبّ الغلبة ونيل المنح من أسباب احتدام الخلاف بين نحاة المدرستين.

هذه مجمل العوامل غير المنهجية التي هيّأت للخلاف النحوي، وأذكت ناره.

وفي مقابل ما عُرِض لا يمكننا بأيّ حال من الأحوال أن نغفل الأسباب الحقيقية لانقسام المذاهب النحوية وتعدّدها أي المنهجية منها؛ ذلك أن النحو علم له أصول وأدلة ومنهج، وإن وجد اختلاف فيه فالأولى ردّه إلى أسس العلم ذاته، ولذلك يمكن حصر الأسباب المنهجية للخلاف بين المدرستين بصفة خاصة، واختلافات النحويين بصفة عامة فيما يأتي:

أ–الاختلاف في مصادر الاستشهاد: يعدّ السماع الأصل الأول لاستنباط الأحكام النحوية، ويقوم على مصادر محددة: القرآن وقراءاته، والحديث النبوي، وكلام العرب شعره ونثره. والمعروف عن منهج المدرستين أنهما اختلفتا في الأخذ من هاته المصادر، فكانت مادة الكوفيين أوسع؛ إذ أخذوا من مصادر لم يأخذ منها البصريون مثل القراءات القرآنية، والفصحاء من العرب ممّن سكنوا الأرياف (2)، وكذا التوسع في رواية الشعر، والسماع من كل العرب غير القبائل الست التي قصر البصريون جمعهم عليها. وممّا لا شك فيه أن اختلاف المادة المسموعة كمّا ونوعًا كان سببًا رئيسًا في اختلاف الأحكام النحوية.

ب **–الاختلاف في حدّ القياس:** فالبصرة تشترط الكثرة في المقيس عليه، بينما الكوفة أوسع في أمر القياس؛ حتى إن نحوييها كانوا يقيسون على المثال الواحد، وكان نتيجة هذا التباين أن كثر الشاذ في النحو البصري، واتّسعت قواعد الكوفيين لكثير من الأحكام التي رفضها البصريون وعدّوها من باب الشاذ الذي يحفظ ولا يقاس عليه. وقيل عن منهج المدرستين في القياس: «الكوفيون لو سمعوا بيتًا واحدًا في جواز شيء مخالف للأصول جَعلوه أصلًا وبوّبوا عليه؛ فمذهب الكوفيين القياس على الشاذ، ومذهب البصريين اتّباع التأويلات البعيدة التي خالفها الظاهر». (3) وقد انتقد بعضهم مذهب الكوفيين من جهة إلى أن احترام

---

(1) ينظر: محمد عيد: الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين، ص: 436[له الرأي ذاته].

(2) ينظر: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة، ص:331، 337.

(3) السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، قراءة وتعليق: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط2006، ص: 429.

السماع يقتضي التمييز بين القليل النادر، والكثير الشائع، لا مساواتهما. [1] وحتى لو كان هذا المذهب من الكوفيين منتقدًا فقد كان سببًا من أسباب خلافهم مع البصريين.

جـ– **التفاوت في الاعتداد بالأصول النحوية:** بني النحو العربي على أصول إجمالية هي: السماع، والقياس، والإجماع، واستصحاب الحال.

ومن أهم أسباب الخلاف النحوي التفاوت في الاعتداد بالأصول النحوية؛ فالمدرسة البصرية تحتكم أكثر إلى القياس فتحكّم القاعدة في المسموع، على عكس الكوفة التي تحتكم إلى السّماع وتقدّمه على القياس، وكان هذا من أهم الفروق بين المدرستين، وكانت نتيجته أن كثرت التأويلات والتخريجات في المدرسة البصرية وكذا الشاذ، على عكس المدرسة الكوفية التي لم تُعْنَ كثيرًا بتأويل النصوص بقدر اتخاذها أدلة لبناء أحكام نحوية.

كما تتفاوت المدرستان في الأخذ بالإجماع واستصحاب الحال؛ ففي عدد من مسائل الخلاف الواردة في كتاب الإنصاف نجد ابن الأنباري يردّ على أحد الفريقين بدعوى مخالفة الإجماع، أو عدم استصحاب حال الأصل [2] ممّا أدّى إلى اختلاف المدرستين.

ولعلّ هذه أهم أسباب الخلاف وليست كُلّها؛ فالكتب تتفاوت في إيراد ها، ومدى تأثيرها في الخلاف. وعلى كل فالأسباب المنهجية في الخلاف بين المذهبين يمكن إسقاطها على خلاف أفراد النحاة بعضهم بعضًا؛ ذلك أنّ الخلاف المذهبي ابتدأ فرديًا ليضحي منهج مدرسة برمتها، لـمّا استمرّ نحاة كل مذهب على ما أثبته سابقه، واستمرّ الآخر على خلافه، وتتابع النحويون في التقيّد بالمذهب المخالف لغيره بين بصري وكوفي، ليتحصّل بعد أمد خلاف مذهبي بين المدرستين الكوفية والبصرية.

---

(1) ينظر: سعيد الأفغاني: في أصول النحو، ص:211.

(2) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، مصر، ط2005، 1/ 108، 160، 2/ 74.

المحاضرة 6:

المدرسة البصرية "منهجها وأعلامها".

المحاضرة السادسة: المدرسة البصرية "منهجها وأعلامها".

تمهيد: البصرة تضع النحو:

يجمع الدارسون من القدماء والمحدثين على أن النحو العربي انطلق من البصرة دون غيرها من الأمصار الإسلامية، وقطع النحو البصري أشواطًا كبيرة قبل أن تلوح في الأفق ملامح النحو الكوفي.

وقد عرضنا في محاضرة سابقة أهم العوامل التي مكّنت للنحو العربي من الظهور في هذه البيئة الجغرافية المميزة؛ فالبصرة قد سبقت إلى التّحضر وحياة الاستقرار، والاشتغال بالعلوم، والاستفادة من الثقافات الأجنبية الّتي وفدت عليها مع منْ وفد من عناصر، وفي مثل هذه البيئة تلتمس الحياة العقلية المنظمة، وتبدو بواكير العلوم المختلفة التي تحتاج إليها هذه الحياة المتحضرة، وكان من أهم ما أنتجه: "علم النّحو".

ولسنا ننكر أننا حرصنا على النّص على أن اللحن كان السبب الرئيس في التّسريع بظهور النحو في هذا الإقليم، إلّا أننا قد نكون مجحفين إن أنكرنا أمرًا آخر لم نذكره سالفًا يتعلّق بالمقومات العلمية والثقافية في البصرة وأهم مراكزها، والّتي لعبت دورًا أساسًا في النهوض بالدراسات اللّغوية عمومًا. ومن تلك المقومات نذكر: **سوق المربد، والمسجد الجامع ومجالسه.** [1]

فأمّا سوق المربد فالأصل أنها سوق تجارية، كان يباع فيها الغنم والإبل، وكانت شبيهة بسوق "عكاظ" في الجاهلية؛ إذ كانت إضافة إلى طابعها التجاري ملتقى للشعراء وروّاتهم والقصاص والخطباء واللغويين والنحويين، يلقون على جموع الناس بضاعتهم الأدبية واللغوية التي كان الناس يأخذونها منهم ويسهمون في انتشارها وذيوعها، كما كان اللغويون والنحويون يحضرون لمشافهة الأعراب الفصحاء الذين يقصدون المربد، ليضعوا على ما يسمعونه عنهم أصولهم في النحو واللغة. وهكذا كان "المربد" مصدرًا ثقافيًّا هامًّا ورافدًا من روافد ثقافتها.

وأمّا المسجد الجامع فكان يتوسّط مدينة البصرة، وهو مقرّ العبادة والاجتماعات العامة التي يدعو إليها الخليفة أو عماله في الأمصار، ثم أضحى منتدى للعلماء والفقهاء والمحدّثين والمقرئين والقصّاص، تنعقد فيه مجالس الدرس وحلقات القراءة والوعظ واللغة والنحو والفقه والكلام.

ويبدو أن الدراسات القرآنية في زمن أبي الأسود الدؤلي وتلاميذه قد نشطت في هذا الجامع، وكان ذلك بداية التفكير في المسائل اللغوية والنحوية والبذرة الأولى التي نمت وأثمرت رجال المذهب البصري في النحو.

---

(1) ينظر: مهدي المخزومي: الفراهيدي "عبقري من البصرة"، ص: 13، وما بعدها.

و: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص: 28-31.

كما كان من أشهر مجالس المسجد الجامع: مجلس الحسن البصري، ومجلس واصل بن عطاء ومجلس حمّاد بن سلمة أحد علماء العربية، وكانت بعدها مجالس لأبي عمرو بن العلاء والخليل وآخرين.

وهذه المجالس جعلت البصرة حاضرة من حواضر العلم والمعرفة، وبخاصة في مجال النحو واللغة.

وقد كان لهذين المركزين الثقافيين أثر بالغ الأهمية في النهوض بالدرس النحوي في البصرة.

وكانت بداية النّحو البصري على يد "أبي الأسود الدّؤلي (69 هـ)، واكتمل هرمه على يد "سيبويه"(180هـ) بظهور كتابه "الكتاب" الّذي كان وما يزال منارة الدّارسين والباحثين في النّحو العربي عامة والبصري بخاصة.

وفيما يلي تفصيل لمراحل تطور الدّرس النّحوي في البصرة.

1-أولية النّحو البصري وتطوّره:

الحق أن النحو معرفة تراكمية، جاء نتيجة تضافر وتعاقب جهود نحويين كثر، كلّ أسهم بحسب ما أوتي من سعة علم في إشادة صرحه، ومن غير الصواب أن ينسب النحو إلى علم بعينه، بل ينبغي التحرّز من مثل قول: إن الخليل هو واضع النحو البصري، أو إن الكسائي هو واضع النحو الكوفي، بل إنّ هاذين ما كانا إلّا حجري أساس في إرساء صرح مذهبيهما، وإن كان لهما الفضل العظيم فيه.

وعلى هذا فالحديث عن الدرس النحوي في البصرة أو غيرها من الأمصار يقتضي تتبع بداياته منذ أوائل النحويين حتى أواخر أعلام كل مذهب.

ولعلّ ارتباط تطور الدرس النحوي العربي بجهود اعلامه هو ما دفع أصحاب كتب السير والتراجم إلى عرض تاريخه من خلال عرض طبقات أعلامه على تعاقب أزمنتهم، فجاءت مؤلفاتهم موسومة في عمومها بألفاظ: مراتب النحويين، وطبقات النحويين، وأعلام النحويين وما إلى ذلك.

وسنحاول في عرضنا لأعلام المدرسة البصرية اعتماد مبدأ التعاقب الزمني مصطلحين عليه باصطلاح القدامى أي: "الطبقات"، مع التركيز على أهم أعلام كلّ مرحلة.

الطبقة الأولى: وتضم أبا الأسود الدؤلي وتلاميذه:

يعدّ "أبو الأسود الدّؤلي" (69 هـ) بحق أوّل نحوي عربي، وإن أُختلِف فيمن أرشده إلى هذا العمل، ويدل على ذلك عمله الجليل الذي قدّمه للعربية، والمتمثل في وضع ما يسمّى (نَقْط الإعراب) وقيل إنّ له أبوابًا في النّحو وضعها، ووضع كتابا يسمّى (التّعليقة)، وكلّها فُقدت. [1]

(1) ينظر: أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، نهضة مصر، القاهرة، مصر، (د. ط)، (د. س)، ص: 09.

ولكن نقط الإعراب وحده يعدّ بحق أوّل عمل علمي قائم على الملاحظة والوصف، وكانت حصيلتُه أن سُميت الحركات الإعرابية (الفتحة، الضمة، والكسرة)، ولعل الوصول إلى هذه المصطلحات أن يكون لأبي الأسود الدؤلي وأصحابه كشفا هائلا يقف من بناء صرح النّحو العربي موقفًا مُقدَّما. (1)

ولعل الدّليل اللّغوي على ذلك أنّ النّحو العربي كلّه بني على هذه الحركات لكونها أصبحت علامات الإعراب، وآثار العوامل، وصار شغل النّحاة الشّاغل هو قرنية العلامة الإعرابية أكثر من القرائن الأخرى لارتباطها بالعامل النّحوي الذي أصبح في وقت تالٍ أهمّ أصول النّحو البصري.

وهكذا فطن أبو الأسود، وأصحابه إلى التّفكير في تغيير أواخر الكلمات بسبب اختلاف المعنى.

وتورد كتب السّير والتّراجم أسماء أعلام كُثُر عُدُّوا تلاميذ أبي الأسود الدؤلي، أشهرهم: نصر بن عاصم (89هـ) صاحب "نقط الإعجام"، ويحيى بن يعمر (129هـ)، وعبد الرحمان بن هرمز (117هـ)، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن، وعطاء بن أبي الأسود، ومعاوية بن عمر بن أبي عقرب أبو نوفل الدؤلي، وغيرهم كثر.

وأمّا جهودهم النحوية فلم يحفظها لنا التاريخ بدقّة، وكل ما هو ثابت أنهم أخذوا علم شيخهم وزادوا عليه، وأذاعوه بين الناس، واجتمع حولهم تلاميذ شكّلوا الطبقة الثانية من البصريين

ولعلّ أهمّ ما يميّز نحاة هذه الطّبقة هو أنّهم كانوا إمّا عربًا أو موالي، وكلّهم باقٍ على فصاحته، فلم يكن لهم حاجة إلى جمع اللّغة، ولا مشافهة الأعراب والارتحال إلى البادية، ولم يُسمَع تخطئتهم لشاعر أو قارئ. (2)

الطبقة الثانية: ومن أشهر أعلامها: عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء.

***عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (117هـ):** (3)

هو أبو بحر عبد الله بن أبي إسحاق بن زيد بن الحضرمي البصري، اشتهر بكنية والده، وهو أحد الأئمة في القراءات. أخذ القرآن عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم، وأخذ النحو والعربية عن ميمون الأقرن وعن أبي حرب بن أبي الأسود.

كان في زمنه يعدّ أعلم أهل البصرة وأعقلهم، فرّع النحو وقاسه؛ فقد قال عنه ابن سلاّم الجُمحي: «أوّل منْ بَعَجَ النّحو، ومدَّ القياس، وشرح العلل».

---

(1) ينظر: تمّام حسّان: الأصول، ص: 33، 34.

(2) ينظر: مر. ن، ص: 34.

(3) ينظر ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1973، ص: 31-33.

ومع الحضرمي بدأت معالم النّحو البصري تتّضح، حيث كانت غايته الوصول إلى إنشاء آلية نحوية لها من الاطراد، والبعد عن الشّذوذ ما يعصم الألسنة عن الخطأ واللّحن.

ومعه بدأ تجريد القواعد والاحتكام إليها، وبدأت ملامح غلبة العقل على النّقل تظهر؛ ذلك أنه كان نِتاج البيئة البصرية متعددة الجاليات، ومتشعبة الثّقافات.

ومعه بدأت تخطئة القرّاء والشّعراء، فكثيرا ما كان يتعرّض لجرير والفرزدق بالتّخطئة في شعره، حتى قال له الفرزدق: «علينا أن نقول، وعليكم أن تتأوّلوا».

وعن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي أخذ "عيسى بن عمر"(149هـ) و"أبو عَمْرُو بن العلاء" (154هـ).

***عيسى بن عمر الثقفي [1] (149هـ):**

هو بصري ثقة، يعدّ من أشهر تلاميذ الحضرمي، كان حافظًا للقرآن، شديد العناية بغريب الكلام واستعماله، كما كان كثير التأليف والكتابة.

مضى على هدْي أستاذه يطرد القياس ويعمِّمه، وهو الذي مكّن للنحو وقواعده الّتي اعتمدها تلميذه الخليل، ومن تلاه من البصريين سواء في محاضراته أو إملاءاته، أو في مصنفاته.

عُرف بتخطئته للكلام العربي إذا ما خالف القياس (القاعدة النحوية) حتى نصوص العصر الجاهلي كان يقيسوها بمقاييسه العقلية، ومن ثمَّ كان عيسى بن عمر يمثل " الاتّجاه العقلي لمدرسة البصرة " فمعه–ومن قبله شيخه الحضرمي–ظهر القياس، ولهما أقوال تدل على أنّهما كانا معنيين بالقياس، وأنّ فكرة اصطناع القياس أداة لصنع النّحو، وأصلا من أصوله قد داعبت أذهانها.

يُنسب إلى الثقفي تأليف كتابين في النحو هما "الإكمال" و"الجامع" اشتهرا زمنه، غير أنهما لم يصلانا.

وفي مقابل الاتّجاه العقلي الّذي مثله "الحضرمي" و"عيسى بن عمر"، ظهر اتّجاه نقلي يعتدّ بالسّماع أكثر، ومثّله "أبو عمرو بن العلاء"(154هـ).

*** أبو عمرو بن العلاء (154هـ): [2]**

هو زيّان بن العلاء بن عمّار المازني، أحد القرّاء السبعة، وهو العربي الوحيد فيهم. بصري ثقة، تتلمذ لابن أبي إسحاق مثل: عيسى بن عمر، ولم يقصر عنايته على النّحو مثله فحسب، بل عُني كذلك بإقراء النّاس في المسجد الجامع بالبصرة.

---

(1) ينظر ترجمته: مص. ن، ص: 40-45.

(2) ينظر ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص: 35-40.

كما عني بلغات الغرب وغريبها وأشعارها وأيامها ووقائعها، ومن ثمّ كان لغويا أكثر من كونه نحويًا، وبهذا مثّل الاتّجاه النّقلي لمدرسة البصرة، وكان راويا ثقة من رواة الشّعر القديم؛ إذ كان قد سمع من العرب، وأكثر من السّماع، وفي كتاب سيبويه روايات لغوية كثيرة منقولة عنه.

الطبقة الثالثة: ومن أشهر أعلامها: يونس بن حبيب والخليل بن أحمد وسيبويه.

***يونس بن حبيب:** (94-182هـ) [1]

هو أبو عبد الرحمان يونس بن حبيب الضبيّ، المتوفّى سنة 182هـ زمن خلافة "هارون الرشيد". روى عن الحضرمي ولزم أبا عمرو بن العلاء، وأخذ عن عيسى بن عمر، ورحل إلى البادية، وسمع عن العرب كثيرا، وعاصر الخليل وسيبويه.

وكانت حلقته في البصرة -حيث تصدرها بعد وفاة الخليل-تغصّ بالطّلاب، وفي مقدمتهم "أبو عُبيدة اللّغوي" و"سيبويه" والكسائي، كما أخذ عنه الفرّاء.

صنّف كتبًا كثيرة منها: معاني القرآن، وكتاب اللغات، وكتاب النوادر الكبير والصغير، ما يوحي بعنايته بالنوادر واللغات والغريب، مع علمه بالنحو، الذي ترك لنا فيه آراء كثيرة استخدم فيها القياس والتعليل والافتراض، إلّا أن اعتماده على السماع كان كثيرًا؛ يأخذ به ويبني عليه حكمه، ويمكن تلمّس آرائه بوضوح في "الكتاب" لسيبويه".

أُثرت عنه بعض الآراء في النّحو خالف فيها الخليل وسيبويه، يعتقد بعضهم أنّها كانت أساسًا بنى عليه تلاميذه الكوفيون نحوهم. [2]

***الخليل بن أحمد الفراهيدي (100هـ -175هـ):** [3]

هو عربي من أزْد عُمان، منشأه ومرباه وحياته في البصرة، كان منذ نعومة أظفاره يلتحق بحلقات المحدّثين، والفقهاء، وعلماء اللّغة والنّحو.

أخذ النّحو عن أستاذيه "عيسى بن عمر" و"أبي عمرو بن العلاء"، كما أكبّ على ما نقل من علوم الشّعوب المستعربة مثل: العلوم الرّياضية، وما تُرجم من علم الإيقاع، والموسيقى عند اليونان.

---

(1) ينظر ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص: 51-53.

(2) ينظر: شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص: 155.

(3) ينظر ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص: 47-51.

و: مهدي المخزومي: الفراهيدي "عبقري من البصرة"، ص: 23-29.

كان صديق ابن المقفع، وقرأ ما ترجمه بخاصة منطق أرسطو. عُني بعلم الكلام والفلسفة، وكان من النّحاة المتكلمين. مؤسس علم العروض، وصاحب أول معجم عربي مكتمل، استبدل نقط الإعراب بالحركات المعروفة اليوم.

***جهوده في إقامة صرح النّحو والتّصريف:** (1)

سبق الخليل بخطوة مهمة في النّحو، وبخاصة عند الحضرمي وعيسى بن عمر، ولكن من الحق القول: إنّه هو الّذي رفع قواعد المذهب البصري وأركانه، وشاد صرح النّحو والتّصريف وبناءهما الضّخم بما رسم من مصطلحات وضبط قواعدهما، وبما شعّب من فروعهما، ويتضح ذلك في محاوراته التي لا تكاد تنتهي مع تلميذه سيبويه والتي تدور فيها مصطلحات النّحو، والصّرف وأبوابهما مثل: المبتدأ والخبر، كان وإنّ وأخواتهما، والأفعال اللازمة، والمتعدية إلى مفعول به واحد، أو مفعولين، أو ثلاثة مفاعيل.

وأصوله في النّحو تظهر في أصول معلومة هي: السّماع، والقياس، والتّعليل، والعوامل، والمعمولات.

أ. السّماع: اعتمد الخليل في تأصيله لقواعد النّحو، وإقامة بنيانه على السّماع، والّذي اعتمد فيه على مصدرين أساسيين هما: النّقل عن القراء ذلك أنّه كان هو نفسه قارئا، ثمّ الأخذ عن أفواه العرب الخُلّص ممّن يسكنون بوادي نجد، والحجاز وتهامة، وارتحل إلى هذه البوادي جمعًا للكلام الفصيح، وهو الّذي أرشد الكسائي(تلميذه) إلى الارتحال إلى البوادي العربية حين سأله: من أين علمك هذا؟

ب. القياس: اعتدّ الخليل مثل شيخه "عيسى بن عمر" بأحكام العقل، وعُني بالقياس على أنّه أصل من أصول الدّراسة النّحوية، وبنى قياسه على الكثرة المطّردة من كلام العرب، مع نصّه دائما على ما يخالفه، وأن يجد له تأويلا.

ج. التّعليل: كان يسْند دائما ما يستنبطه من القواعد والأحكام بالعلل الّتي تصوّر دقته في فقه الأسرار اللّغوية والتّركيبية الّتي استقرت في كلام العرب منذ القدم، يقول الزّبيدي: «استنبط من علل النّحو ما لم يستنبطه أحد، وما لم يسبقه إلى مثله سابق».

د. العوامل والمعمولات: هو الّذي ثبت أصول نظرية العامل، ومدّ فروعها، وأحكمها إحكامًا؛ حيث ذهب إلى أنّه لابدّ لكل رفع أو نصب أو خفض أو جزم من عامل يعمل في الأسماء والأفعال المعرّبة.

وقسّم العوامل إلى لفظية ومعنوية، وذهب إلى أنّ العوامل تعمل ظاهرة ومحذوفة، وآراء أخرى كثيرة تتعلق بالعامل والمعمولات أوردها سيبويه في الكتاب مصنفة.

إضافة إلى هذه الأصول، يمكن أن نخلص إلى أنّ فكر الخليل تميَّز كذلك بالآتي:

---

(1) ينظر: مهدي المخزومي: الفراهيدي "عبقري من البصرة"، ص: 75-94.

هـ. كثرة التّخريجات للعبارات إذا اصطدمت بالقواعد، وكثرة إدلائه بوجوه مختلفة من الإعراب في لفظة واحدة.

و. فتحه في الإعراب ما يمكن أن نسميه الاحتمالات النّحوية.

ز. فتح مع تلميذه سيبويه "باب التمارين غير العملية" على مصاريعه (والتّمارين العملية هي تطبيق قاعدة على مثال لم يُسمع عن العرب)

وعلى العموم فإن فكر الخليل يُمكن تلمس صوره واضحة في "الكتاب" لسيبويه تلميذه؛ ذلك أنّ أكثر الآراء في الكتاب للخليل.

***سيبويه (180هـ):** [1]

واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر، فارسي الأصل، وُلد بإحدى قرى شيْراز تسمى "البيضاء"، وفيها تلقى دروسه الأولى، ثمّ قدِم البصرة طلبا للاستزادة من العلم وهو غلام، والتحق بحلقات المحدّثين والفقهاء، ولزم حلقات النّحويين واللّغويين، فأخذ عن "عيسى بن عمر" و"الأخفش الأكبر"، و"يونس بن حبيب"، واختصّ بالخليل بن أحمد وأخذ كل ما عنده من مسائل النّحو والصّرف مستمليًا ومُدَوّنًا.

خلف الخليل في حلقته بعد موته، وأكبَّ حينئذٍ على تصنيف "الكتاب"، ثمّ ارتّحل إلى بغداد رغبة في التّألّق. وهناك جرت بينه وبين الكسائي المناظرة المشهورة، ولم تطِب له الإقامة في بغداد، فولّى وجهه نحو موطنه، وتوفي سنة 180 هـ.

***الكتاب لسيبويه:**

يعدّ الكتاب بحقّ نموذج النّحو البصري وقمّته، وقد حمله عن سيبويه تلميذه" الأخفش الأوسط"، وأذاعه في النّاس بعد وفاته باسم" الكتاب"؛ ذلك أنّ سيبويه لم يُسعفه الموت إلى أن يضع له عنوانا، ولا مقدّمة ولا خاتمة.

جمع فيه صاحبه آراء النّحاة البصريين السّابقين له، ولاسيما آراء الخليل، وأضْفَى عليها، فكان خلاصة النّحو البصري، وزُبدتُه.

قسّم سيبويه الكتاب قسمين: الأول: للنّحو، ومباحثه، والثّاني: للصرف محيطًا بتفاصيل كل مبحث إحاطة تامّة، وأصلا لمباحث الصّرف بمادة صوتية واسعة مثل: الكلام عند الإمالة، والوقف، والإشمام، والإشباع.

واعتمادًا على الكتاب استطاع الدّارسون تحديد منهج المدرسة البصرية في دراسة اللّغة والنّحو، وموقفها من مصادر اللّغة، والأصول من سماع، وقياس، وإجماع، وتعليل، وعوامل. ولعلّ موقف سيبويه نفسه من كلّ

(1) ينظر ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص: 66-72.

ذلك كان موقفا مشابها لموقف أستاذه الخليل، فلم يزغ عن منهجه كثيرا، واعتدّ بآرائه أيّما اعتداد، وروى عنه أكثر ما روى حتى قيل إنّ الكتاب للخليل وليس لسيبويه.

عدُّ كتاب "سيبويه" قرآن النّحو، وعُني من بعده من النّحاة بشرحه، ووضع التّعليقات عليه. وبظهور "الكتاب" اكتمل الدّرس النّحوي البصري، بل جمُد فلم يؤتَ بعده بجديد إلاّ قليلا حتى قيل إنّ كتاب سيبويه كان نقمة على النّحو العربي.

وأمّا النّحاة التالون له فنذكرهم إيجازًا:

* **الأخفش الأوسط**: [1]

هو أبو الحسين سعيد بن مسعدة، فارسي الأصل مثل سيبويه، لزمه وأخذ عنه، وكان السّبيل الوحيدة إلى كتابه، ويعدّ أعظم أئمة النّحو البصري بعد سيبويه.

أخذ عنه بصريون مثل: "الجرْمي" و"المازني"، وكوفيون مثل "الكسائي" وهو في رأي شوقي ضيف [2] من فتح باب الخلاف على النحو البصري، بل هو الّذي أعدّ لتنشأ فيما بعد المدرسة الكوفية؛ حيث خالف أستاذه سيبويه في كثير من المسائل، وحمل ذلك عنه الكوفيون، ولاسيما الكسائي، ومضوا يوَّسعون فيه، وهو خلاف بناه على خصب ملكاته، وسعة معرفته بلغات العرب، وقراءات الذّكر الحكيم، وقدرته على النّفوذ في حقائق اللّغة التّفصيلية إلى كثير من الآراء الطريفة، وحتى ليصبح إمام الخلاف في النّحو، والصّرف، ومسائلهما.

* **قطرب (206هـ)**: [3]

هو محمد بن المستنير، بصري المولد والمربى، لزم سيبويه، والأرجح أنّه أخذ عن الأخفش الأوسط "الكتاب" لما كان السّبيل الوحيد إليه، وقد اتّخذ الكتاب حرفة وأداة لتكسبه في تعليم أبناء الطّبقة الممتازة ببغداد؛ حيث خصّه هارون الرّشيد بتأديب ابنه الأمين، وكذلك فعل أحد قوّاد هارون الرشيد.

له مؤلفات عديدة في النّحو واللّغة، منها (كتاب العلل في النّحو)، و(الاشتقاق في التّصريف). خالف شيخه سيبويه في بعض الآراء الّتي توردها كتب النّحو.

***أبو عمر الجرْمي (225هـ)**: [4]

هو صالح بن إسحاق، مولده ومنشأه بالبصرة، أخذ عن الأخفش " الكتاب"، وكل ما عنده.

---

(1) ينظر ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص: 72-74.

(2) ينظر: المدارس النحوية، ص: 156.

(3) ينظر ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص: 99، 100.

(4) ينظر ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص: 74، 75.

نزل "بغداد" واختلف إليه الطّلاب يحاضرهم في كتاب سيبويه، ويُملي عليهم بعض مصنفاته، إليه يعود الفضل في نسبة الشّواهد الشّعرية في كتاب سيبويه إلى أصحابها ماعدا خمسين شاهدا لم يقف على قائليها.

كان الجرْمي سُنّيًا قويّ الحُجة، عالي الصّوت في مناظراته، ناظر الفراء في عامل رفع المبتدأ، وانتصر عليه. وللجرمي بعض آراء خالف فيها سيبويه.

***أبو عثمان المازني (ت 249هـ):** [1]

من أهل البصرة مولده ومرباه بها، لزم الأخفش، وأخذ عنه الكتاب، أصبح علَم البصرة المفرد في النّحو والتّصريف بعد وفاة الأخفش والجرْمي.

إليه يعود الفضل في تخليص أبواب التّصريف من الكتاب لسيبويه، وخصّها بكتاب هو " التّصريف".

كان المازني فطنًا ذكيًّا، ومناظرًا ألْمُعيًّا، جرت بينه وبين علماء عصره مناظرات عديدة، ولاسيما نحاة الكوفة، فكان قويّ الحجّة، خصْب العقل.

فتح باب التّمارين غير العملية في الصّرف على مصراعيه، وكان يتشدّد في الأخذ بالقياس، ويردّ ما لا يطّرد معه من لغة العرب، ومن بعض القراءات القرآنية.

خالف سيبويه في عديد المسائل الصّرفية عن بصيرة؛ إذ كان يقول: «إذا قال العالم قولا متقدّمًا، فللمتعلّم الاقتداء به، والانتصار له، والاحتجاج لخلافه إن وُجد إلى ذلك سبيلا».

***المبرد (285هـ):** [2]

هو محمد بن يزيد الأزدي، إمام نحاة البصرة لعصره، أخذ عن أبي عمر الجرمي والمازني.

يعدّ المبرد آخر أئمة المدرسة البصرية المهيمنين، وفي عهده بلغ التّنافس بين المدرستين أوجّه ولا سيما مع "ثعلب الكوفي" عندما ارتحل الأولُ "المبرد" إلى بغداد، يقول عنه ابن جني: «يُعدُّ جيلا في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا البصريين».

له مؤلفات عديدة، أهمها: كتاب (مسائل الغلط) الّتي خالف فيها سيبويه مخالفة صريحة.

تتلمذ له كثيرون منهم في المباحث اللّغوية: "ابن دريد"، واشتهر "دُرُستويه" بالمباحث الصّرفية، بينما اشتهر بالمباحث النّحوية "الأخفش الصّغير (علي بن سليمان 315هـ)"، و"محمد بن علي" المعروف بـ"ابن مَبْرَمَان(326هـ)".

---

(1) ينظر ترجمته: مص. ن ص: 87-93.

(2) ينظر ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص:101-110.

واشتهر منها في تلك المباحث: "الزّجاج (310هـ)"، و"أبو بكر بن السّراج (316 هـ)"، والسيرافي (368هـ)".

وإلى "الزّجاج"، و"ابن السّراج" انتهت الرّياسة في النّحو الصري، والإمامة فيه بعد "المبرد".

2-مصادر الدّراسة عند البصريين: (1)

وجُملةُ المصادر الّتي عُنِيَ النّحاة البصريون بأخذ مادتهم منها هي:

أ. القرآن الكريم: وهو أصدق مرجع، وأصحّ مصدر يرجع إليه النّحاة في تقنين القوانين واستخراج الأصول؛ لأنّ العربيّة لم تشهد كتابًا أُحِيطَ بالعناية واكتُنِفَ بالرّعاية مثل القرآن الكريم.

وإذا عدنا إلى إمام نحاة البصرة -سيبويه-وجدنا أنّه كان من أكثر النّحاة تمسّكًا بالشّاهد القرآنيّ، وأعظمهم إجلالًا له، وكان يضعه في المرتبة الأولى لأنّه أبلغُ كلامٍ نزلَ، وأوثقُ نصٍّ وصلَ، ولأنّه يمثّل العربيّة الأصيلة، والأساليب الرّفيعة ويخاطب العرب بلغتهم وعلى ما يعنون.

ومن ثمّة اتّبع جمهور النّحاة البصريين منهج "سيبويه" في الاستشهاد بالقرآن الكريم بعدّه النّص المدوّن في المصحف الشّريف، بل إنّ شواهد "سيبويه" عامة من القرآن وغيره ظلّت تتكرّر في كتب النّحاة التّالين له، ولم يظهر التّجديد في شواهد النّحو إلّا قليلًا.

وأمّا القراءات القرآنيّة الّتي تعدّ الأوجه المختلفة لأداء النّص القرآنيّ فقد وقف منها جمهور النّحاة البصريين موقفًا مناقضًا؛ ذلك أنّهم لم يعتمدوها مصدرًا في استنباط القواعد، ونجد من البصريين من كان يرمي القراءات بالضّعف والشّذوذ، وحتّى باللّحن أحيانا إذا ما عجزوا عن تأويلها وتخريجها وفق قواعدهم، متناسين بذلك أنّ القراءات سنّة واجبة الاتّباع.

ب. الشعر الجاهليّ والإسلاميّ: استشهد البصريون بشعر الطّبقتين الأوّليين-الشعراء الجاهليون والمخضرمون-إجماعًا من غير تفريق، ولم يستشهد أكثرهم بشعر شعراء الطّبقة الثّالثة "الشعراء الأمويون"، وإن كان الصّحيح صحّة الاستشهاد بكلامهم، فعلى ما مرّ بنا أن "عبد اللّه بن اسحاق الحضرميّ" وتلميذه "عيسى بن عمر" كانا يُلَحِّنون "الكميت" و"ذا الرمّة" و"الفرزدق" وأضرابهم، وكانوا يعدّونهم من المولّدين.

وأمّا شعراء الطّبقة الرّابعة "الشعراء المولّدون" فالصّحيح عدم الأخذ عنهم، ومع ذلك وُجِد من النحاة من استشهد ببعض شعر ثلّة منهم.

---

(1) ينظر تفصيلها عند: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: 329، وما بعدها.
و: إبراهيم السامرائي: المدارس النحوية "أسطورة وواقع"، ص: 141، وما بعدها.

ج. الفصحاء من العرب: وهم سكان البادية الّذين بعدوا عن التّأثّر بلغات أجنبيّة؛ أي الّذين سكنوا أواسط شبه الجزيرة العربية، وكانوا أكثر توغّلًا في البداوة، وأبعد عن الاتّصال بالأعاجم والأرياف، والّذين ينتمون في الغالب إلى: قيس، وتميم، وأسد، وهذيل، وبعض كنانة، وبعض الطّائيين.

يقول "السّيوطيّ" نقلًا عن "الفارابيّ": «... والّذين عنهم نقلت اللّغة، وبهم اقْتُدي، وعنهم أُخِذَ اللّسان العربيّ من بين قبائل العرب: قيس، وتميم، وأسد، فإنّ هؤلاء الّذين عنهم أكثر ما أحد ومعظمه، وعليهم اتّكل في الغريب، وفي الإعراب والتّصريف، ثمّ هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطّائيين، ولم يُؤخَذ من غيرهم من سائر قبائلهم». (1)

وهذه اللّغات هي الّتي خرج اللّغويّون لجمعها من البوادي العربيّة في رحلة أوليّة، ثمّ كانت هناك رحلة عكسيّة، وهي رحلة الأعراب سكان البوادي إلى الحواضر العلميّة لتزويد اللّغويين والنّحاة بالكلام الفصيح الّذي اعتمدوا عليه في وضع القواعد، كما كانوا حكّامًا في عديد المناظرات الّتي جرت بين النّحاة على تعدّد مشاربهم.

وعلى هذا يمكن عدّ الأعراب الّذين ارتحلوا إلى الحواضر مصدرًا مهمًّا من مصادر النّحو البصريّ والكوفيّ على حدّ سواء.

د. الفصحاء من غير العرب: واستشهد البصريون بكلام غير العرب أيضًا ممّن صحّت سلائقهم، واطمأنّ العلماء إلى قوّة ملكاتهم "كالحسن البصريّ" و"الحجاج بن يوسف الثقفي"، فقيل له: (فأيّهما أفصح؟) قال: (الحسن)، كما استشهدوا بكلام "أبي علي الأسواري الّذي جلس يعظ النّاس في مسجد نحو ستّ وثلاثين سنة، والّذي كان "يونس بن حبيب" يسمع منه كلام العرب ويحتجّ به.

هـ. الأمثال: وما جرى مجراها من عبارات جزيلة اللّفظ، حفظها الاستعمال، وشاعت على الألسنة كقول العرب (الصَّيفَ ضيَّعتِ اللّبن)، (رَجَعَ بِخُفي حُنين)، (وتمرة خيرٌ من جرادة)، وما إلى ذلك ممّا يُطمَأنّ إلى صحّته، والاستشهاد به.

و. وأمّا الحديث النّبويّ الشّريف: فلم يستشهد به النّحاة الأوّلون "كأبي عمرو بن العلاء" و"وعيسى بن عمر الثّقفيّ" و"الخليل بن أحمد الفراهيدي" و"سيبويه"، وما إلى ذلك من النّحاة البصريين والكوفيين على حدّ سواء.

كما أبعدوا عن مجال بحوثهم لغة الأعراب الّذين هاجروا إلى الأمصار، وانتقدوا شعر شعرائهم الّذين كانوا ينظمون الشّعر بلغة أقوامهم، ولا ننسى ما كان بين "أبي إسحاق الحضرمي" و"الفرزدق" من ملاحاة، حتّى قال "الفرزدق" "للحضرميّ" لما كثرت تخطئته له: "علينا أن نقول، وعليكم أن تتأوّلوا".

---

(1) السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 47.

4-خصائص المنهج البصريّ:

ظهر النّحو العربيّ في البصرة في مناخٍ علميٍّ متعدّد المشارب والاتّجاهات؛ فقد ظهرت قبله علوم عقليّة كثيرة، مثل: الفلسفة، والمنطق، وعلم الكلام، وما إلى ذلك من العلوم الّتي أثّرت فيه أيّما تأثير، وإن كان ذلك التأثير قد جاء في مراحل متأخرة نسبيًّا من نشأته. (1)

وتأثير هذه العلوم في النّحو ناتج عن تأثّر أهله –النّحاة–بما حَوَتْهُ عقولهم من ثقافات وعلوم متعدّدة شكّلت لهم قناعات محدّدة، أثّرت بشكل مباشر أو غير مباشر في نحو البصرة.

ولعلّ أهمّ ما يميّز المنهج البصريّ في دراسة اللّغة والنّحو ما يأتي:

1. التّشدّد في أمر القياس؛ حيث لا يقيسون إلّا على الكثير والمطّرد، ولا يبنون قواعدهم على المثال الواحد كما هو شأن الكوفيين.
2. كثرة التّأويلات والتّخريجات لما يتعارض مع قواعدهم من نصوص.
3. التّشدّد في أمر السّماع والرّواية؛ حيث كانوا يتخيّرون القبائل الّتي يسمعون عنها، وكانوا يعيبون على الكوفيين اتّساعهم في أمر السّماع.
4. كثرة الشّاد الّذي يحفظ ولا يقاس عليه لشدّة تمسّكهم بالقواعد الّتي يضعونها، ويأبون تغييرها إذا صادفوا نصوصًا تخالفها.
5. تحكيم العقل والمنطق فيما يسمعونه من كلام، وهذا نتيجة تأثّر النّحاة بعلوم عقليّة عديدة على ما ذُكِر في أوّل الكلام.
6. كثرة التّعليلات والعوامل حتّى خرج المتأخرون منهم عن الغاية الحقيقيّة للنّحو وهي التّأصيل للّغة العربيّة، وأصبح النّحو قياسًا شكليًّا تُقاسُ فيه أحكام على أحكام، وهذا أبعد ما يكون على أصل اللّغة.
7. اتّخاذ القياس والتّأويل أداة لصنع اللّغة وخلق صورها ووسيلة لتفسيرها، كما اتّخذوه لإيجاد صور من التّعبير لم يكن يعرفها أصحاب اللّغة أنفسهم حتّى استحالت اللّغة أو عادت إلى مجموعة من القوانين الّتي أفرغتها أدواتهم العقليّة في قوالبَ معيّنةٍ.

(1) ينظر: علي أبو المكارم: تقويم الفكر النحوي، ص: 65، وما بعدها.

المحاضرة 7:

مدرسة الكوفة "منهجها وأعلامها".

المحاضرة السابعة: مدرسة الكوفة "منهجها وأعلامها".

1-نشأة المدرسة الكوفية:

كان تمصير الكوفة بعد تمصير البصرة بسنتين أو ثلاث فحسب، ومع ذلك فإن النحو البصري سبق النحو الكوفي بما يقارب قرنًا من الزمن. (1)

ففي الوقت الّذي عُني فيه علماء البصرة بوضع النّحو واستقراء نصوص اللّغة وإحكام القياس، كان أهل الكوفة منشغلين برواية الأشعار، والأخبار والقراءات القرآنية، والفقه الإسلامي.

وبعد مسيرة تقارب المائة سنة من ظهور النّحو البصري، بدأت بوادر النّحو الكوفي تلُوح في الأفق، واستطاعت هذه المدرسة أن ترسم لنفسها منهجًا مغايرًا في دراسة اللّغة والنّحو، يميّزها من مدرسة البصرة، ولاسيما على عهد الكسائي وتلميذه الفراء.

ولكن هناك مسألة يجدر التّنويه عليها، وهي: إلى من تُنسَب أوّلية النّحو الكوفي؟ وعلى يد من استقام منهجه؟

يذهب أكثر أصحاب كتب السّير والتّراجم التّراثية (2) إلى أنّ أوّل نحوي كوفي هو: "أبو جعفر الرؤاسي"، وهو كوفي ارتحل إلى البصرة، وأخذ النّحو عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، وصحب الخليل بن أحمد الفراهيدي، ثم عاد إلى الكوفة، ونشر ما تعلّمه فيها، وفي الكوفة لَقي عمّه" مُعاذ الهراء" متصدّرا للتدريس فكانا بذلك أوّل من أشاع النّحو في الكوفة.

وقيل: إنّ أوّل من عُرف بالنّحو من الكُوفيين إنّما هو "شَيْبَان بن عبد الرحمن التّميمي" (164هـ)، وكان بصريا ثقة، غير أنّه انتقل إلى الكُوفة، وسكن بها زمانا، ونشر النّحو البصري فيها. (3)

ولكن المتتبع لآراء اللّغويين المحدّثين يلحظ شبه إجماع منهم على أنّ البداية الحقيقية للنحو الكوفي كانت مع الكسائي (189هـ)، وأنّ أبا جعفر الرؤاسي لم يكن صاحب علم يقف ندًّا للنّحو البصري، ولا رَسَمَ نحوًا كوفيًّا مُمَنْهَجًا.

واختلف المحدّثون فيمن فتح الطّريق أما الكسائي للخوض في غمار النّحو الكوفي المخالف للنحو البصري.

---

(1) يفسّر قول: "إن المدرسة البصرية سبقت المدرسة الكوفية بحوالي مائة سنة" بأن الفارق الزمني بين أول نحوي بصري وهو أبو الأسود الدؤلي (69هـ) وبين أول نحوي كوفي وهو أبو جعفر الرؤاسي –الذي عاصر الخليل بن أحمد (175هـ) يقدر بحوالي مئة سنة

(2): ينظر: ابن النديم: الفهرست: تح: مصطفى الشويمي، الدار التونسية للكتاب، تونس، ط1985، ص: 293.

و: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص: 125.

(3) ينظر: مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ط6، 2001، 3/ 142.

*قيل: كان يونس بن حبيب شيخ الكسائي، هو من فتح له باب الخلاف وبنى على آرائه نحوا مخالفًا للنحو البصري، ذلك أنّه أُثر عنه بعض المسائل التي خالف فيها جمهور النّحاة البصريين. (1)

*وقيل: بل كان الأخفش الأوسط شيخ الكسائي كذلك، وهو الّذي فتح له أبواب الخلاف على مصراعيها لِما اشتهر به من مخالفة مذهبه البصري في عديد المسائل. (2)

*ورأي ثالث يذهب إلى أنّ الخليل بن أحمد كان المصدر الرئيس الّذي استقى منه الكسائي نحوه، وهو الّذي أرشده إلى الارتحال إلى بوادي نجد والحجاز وتهامة لجمع اللّغة. (3)

ومهما يكن من أمر هذه الآراء وظاهر التّناقض الّذي تحمله، فإنّه يُمكن التّوفيق بينها قائلين:

إنّ بداية النّحو الكوفي – الّذي انبنى أوّلا على النّحو البصري–كانت على أيدي رجال ارتحلوا من الكوفة إلى البصرة، أو العكس كأبي جعفر الرؤاسي ومعاذ الهراء، وشيبان بن عبد الرحمن التّميمي أو غيرهم، والأكيد أنّ كل علم في بدايته يكون غير ناضج، ولا متضح المنهج وآليات الدّراسة، ثمّ يتطوّر شيئا فشيئا حتى يستوي خلقًا سويًّا، وهذا شأن النّحو الكوفي الّذي بلغ مرحلته المنهجية على يد الكسائي.

ولم يكن الكسائي شيخ نفسه، بل إنّه أخذ العلم من عند أبي جعفر، ومعاذ الهراء أوّلا، ثم ارتحل إلى البصرة، وتتلمذ للخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب، والأخفش الأوسط الّذي قرأ عليه كتاب سيبويه في بغداد.

وكل واحد من هؤلاء المشايخ البصريين أثّر في فكره بدرجات متفاوتة، ثمّ زاد على ذلك العلم الّذي أخذه، وأقْلمه مع خصائص فكره الكوفي المشبع بالرواية، والاعتداد بالنقل، ولاسيما أنّه كان هو ذاته أحد القرّاء السّبعة.

وتطوّر النّحو الكوفي في مراحل تالية، وكوّن له منهجًا وأحكامًا، ومصطلحًا مقاربًا أو مغايرًا لنظيره البصري.

2–أشهر أعلام المدرسة الكوفية:

أشهر أئمة الكوفيين هم: علي بن حمزة الكسائي: مؤسس المنهج الجديد للدراسة النّحوية، ويحي بن يزيد الفراء الّذي كان له الفضل في تنظيم الدّراسة الكوفية وتثبيت قواعدها، ثمّ أحمد بن يحي ثعلب، وقد كان له الفضل في المحافظة على استمرار الدّراسة الكوفية.

---

(1) ينظر: شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص: 155.

(2) ينظر: مر. ن، ص: 156.

(3) ينظر: مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص:329.

وفيما يلي تفصيل لسيرهم، وأشهر تلاميذهم الّذين تبنّوا النّحو الكوفي على نحو ما هو مفصّل في المخطط الموالي.

غير أنه ليس لنا في هذا الجانب أن نقف موقف المحدثين في إنكار جهود النحويين الأوائل الذي كان لهم فضل نشر النحو في مدينة الكوفة، وإن كان نحوهم ليس إلّا امتدادًا للنحو البصري؛ ذلك أن فضلهم في التأسيس للنحو الكوفي كفضل البذرة الصالحة التي تنتش منها شجرة يانعة، فلولا جهود الأوائل لما أثمرت جهود الآتين بعدهم، ولذلك سنعرض إيجازًا لتراجم أوائل النحويين الكوفيين من مثل: أبي جعفر الرؤاسي، ومعاذ الهراء، وسيبان بن عبد الرحمان التميمي.

أولا: شيبان بن عبد الرحمان التميمي (164هـ):

يُكنّى أبا معاوية، وهو عالم بصري اشتغل بالقراءة والحديث والنحو، انتقل من البصرة إلى الكوفة، وفتح أمام تلاميذه الكوفيين ميدان الدرس النحوي الجديد، فوجد منهم من شُغِفوا بالاطّلاع على هذا العلم فأخذوا عنه، واشتهر منهم: معاذ بن مسلم الهرّاء، وربّما أخذ عنه الرؤاسي والكسائي.

ارتحل شيبان بعد ذلك إلى بغداد ومات فيها في خلافة "الهادي"، وهو وبالرغم من كونه نحويًّا بصريًّا من طبقة أبي عمرو بن العلاء فقد كان سببًا أساسًا لارتحال النحو البصري إلى الكوفة وإذاعته هناك.

ثانيًا: معاذ الهرّاء (187هـ): (1)

هو معاذ بن مسلم الهرّاء، عمّر طويلا، وكان تاجرًا ونحويًّا. اختلف إلى نحاة البصرة فأخذ عنهم النحو والصرف، ثمّ رجع إلى الكوفة وقعد للإملاء، وأخذ عنه فيمن أخذوا الرؤاسي والكسائي والفرّاء.

قيل إنّه ألّف في النحو كثيرًا، لكن لم يظهر له شيء من التصانيف، ولم يورد له أحد من المترجمين مصنّفات ولا آراء نحوية تميّزه غير ما ذكره ابن خلّكان في وفياته.

ثالثًا: أبو جعفر الرؤاسي: (2)

اسمه: محمد بن أبي سارة، ويكنى "أبا جعفر"، وهو ابن أخ "معاذ الهراء"، وهو أحد النحاة الثلاثة الذين ذكرت المصادر أنهم تتلمذوا على يد "معاذ".

ارتحل إلى البصرة، وأخذ العربية عن أبي عمرو بن العلاء، وصحب الخليل بن أحمد.

ذُكرت له بعض المؤلفات منها كتاب" الفيصل" الذي يقال إن الخليل استعاره منه واطّلع على أرائه، ثم نقلها إلى تلميذه "سيبويه"، كما ينسب إليه كتاب في "الجمع والإفراد".

---

(1) ينظر ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص: 125.

(2) ينظر ترجمته: مص. ن، ص: 125.

رابعًا: علي بن حمزة الكسائي (189هـ). [1]

رأس المدرسة الكوفية، وراسم منهجها، أخذ العلم عن "الرؤاسي"، و"الهراء" في الكوفة، ولما استوفى ما عندها، ارتحل إلى البصرة، وأخذ عن الخليل فترة وأرشده إلى الارتحال إلى البادية، ولما أتمّ جمع اللّغة عاد شوقًا لمجالسة الخليل فألفاه قد مات، وتصدّر حلقته "يونس بن حبيب" فأخذ عنه، وجاد له في مسائل كثيرة، وأقرّ له يونس فيها، وصدّره في موضعه، وكان هذا إجازة له أن يرأس مجالس الدّرس، فعاد إلى الكوفة، وأذاع علمه فيها، ولكنه لم يمكث طويلا حتى ارتحل إلى بغداد ليُقرئ النّاس فيها، ويملي مجالسه في العربية على طلابها، ونَدَبه الرّشيد لتأديب ولديه المأمون، والأمين.

كما كان إمام النّاس في القراءة بعد شيخه حمزة بن حبيب الزّيات.

* **تلاميذه:** وهم كُثُر، منهم: الفرّاء، والقاسم بن مَعَن، وعلي بن المبارك الاحمر، وهشام بن معاوية الضّرير، وسَلَمُويه، وإسحاق البغوي، وأبو مِسْحل، وقتيبة، واللّحياني.

* **مؤلفاته:** ذكرت له أسماء كتب كثيرة منها: كتاب معاني القرآن، وكتاب مختصر النّحو، وكتاب القراءات، وكتاب العدد، وكتاب النّوادر الكبير، والصغير، وكتاب: ما تلحن فيه العوام، وهو ما وصلنا من مؤلفاته.

*** فضله على النّحو الكوفي:**

يعدّ الكسائي بحق مؤسس المدرسة الكوفية، وهو الّذي وضع لها أسسها، وجمع لها مادة درسها، ورسم لها منهجها الذي يعتمد عليه إنشاؤها.

خامسًا: يحي بن يزيد الفراء (207هـ). [2]

* **حياته، ومشايخه:** أخذ أولا عن أبي جعفر الرؤاسي، ثمّ ارتحل إلى البصرة وأخذ عن يونس بن حبيب لأنّه لم يدرك الخليل بن أحمد، ثمّ انتقل إلى بغداد وأخذ عن الكسائي بعد أن كان يريد مزاحمته بمساءلته فيما أخذه عن الرؤاسي، وأنكره عليه الكسائي وأحاله على خلافه وأقنعه به، فلزمه إذ ذاك، وتتلمذ له، ولزم حلقته، وكان ممّن أحاط بالكسائي في مناظرته لسيبويه. وكان زائد العصبية على سيبويه، بالرغم من عنايته بعد وفاته بالقراءة من "الكتاب" والإفادة منه.

---

(1) ينظر ترجمته: ابن النديم: الفهرست، ص: 297-300.

و: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص: 127-130.

(2) ينظر ترجمته: ابن النديم: الفهرست، ص: 301-307.

و: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص:131-133.

عُني برواية اللّغة، ودراسة صناعة الإعراب، وتفسير القرآن، ورواية أحرفه، واستفاد من الثقافات الأجنبية، وتركت الفلسفة الكلامية أثرا في تفكيره، ونحوه عامة حتى إنّه كان من المتكلمين، وإن كان سُنيا.

خصّه المأمون بن هارون الرّشيد بتأديب ولديه، ونال عنده حظوة وإعجابًا لا نظير له، حتى إنّه خصص له غرفة في بيت الحكمة، وخصّه بالخدم والحشم ليتفرغ لتأكيد كتاب في العربية هو كتاب "الحدود".

* **تلاميذه:** وهم: سَلمة بن عاصم، وأبو عبد الله الطّوال، محمد قادم، وهؤلاء الثّلاثة هم الذين حملوا علم الفراء، وأذاعوه في الدّارسين، وأخذ عنهم: أبو العباس ثعلب.

ومنهم أيضا: ابن اسحاق السكيت، ومحمد بن سعدان.

* **مؤلفاته:** كتاب معاني القرآن، الحدود، المذكر والمؤنث، الوقف والابتداء، الجمع والتثنية في القرآن، وكتاب الأيام واللّيالي.

*** أثره في النّحو الكوفي**

تكفّل الفراء بإتمام بناء النحو الكوفي، وتعهد المدرسة بالنّحو، وأعاد النّظر فيما جاء به الكسائي، فأخذ منه ما يتفق مع طبيعة المدرسة، وبنى منهجها على أساس علمي جديد.

خالف شيخه الكسائي في بعض جوانب الدراسة شكلا، وموضوعا، حيث إنّه عُني –خلافا لشيخه– بالفلسفة، وعلم الكلام، وتأثر بهما، وانتحى منحى الفلاسفة في تعليل القضايا النّحوية، وفلسفة الأحكام، وكان الكسائي أبعد ما يكون عن التأثر بها.

ومن جهة الموضوع خالفه في أحكام عديدة إمّا لتباين مقاييسها العامة واختلاف وجهات النظر الخاصة بينهما.

سادسًا: أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب. [1]

هو بغدادي المولد والمنشأ، وكان شَيْبانيا بالولاء، وهو ثالث ثلاثة قامت على أعمالهم مدرسة الكوفة، وكان له الفضل في المحافظة على استمرارها.

* **أساتذته:** لم يُدرك الكسائي، ولا اتّصل بالفراء، وإنّما أخذ اللّغة والنّحو عن تلاميذهما مثل: سَلَمة بن عاصم، ومحمد بن زياد الأعرابي، كما أكبّ على دراسة كتب الفراء، وحفظ رسائله، وكان مرجع أهل الكوفة في رواية أقوال الكسائي والفراء.

---

(1) ينظر ترجمته: ابن النديم: الفهرست، ص: 333-336.

و: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص: 141-150.

* **مؤلفاته:** كتاب "المجالس"، وكتاب" ما تلحن فيه العامة"، وكتاب "ما ينصرف ومالا ينصرف"، وكتاب "معاني الشّعر"، وكتاب "اختلاف النّحويين"، وكتاب "القراءات"، وكتاب "معاني القرآن".

* **تلاميذه:** علي بن سليمان الأخفش، والزّجاج؛ لكنه ما لبث أن اتّبع المبرد، وانتحى النّحو البصري، وإبراهيم بن محمد بن عرفة الملقب بـ "نفطويه"، وأبو بكر بن الأنباري، وهو الذي بقي مُشيدا بالنّحو الكوفي أمام النّحو البغدادي، والمفضل بن سلمة بن عاصم.

وبعض تلاميذه ترك المذهب الكوفي إلى المذهب البصري، وبعضهم كان من أعلام المذهب البغدادي الذي ظهر على عهد ثعلب.

*** أثره في النّحو الكوفي**

شهدت الفترة التي عاش فيها(ثعلب) شدّة التّنافس بين مدرستي البصرة، والكوفة ممثلة في شخص ثعلب زعيم الكوفة، والمبرد زعيم نحاة البصرة.

وعنده توقف النشاط الكوفي بوصفه مزاحمًا للنشاط البصري؛ حيث ظهرت على عهده بوادر مدرسة جديدة انتخابية، تقوم على الأخذ من المدرستين، وهي: المدرسة البغدادية.

أعلام المدرسة الكوفية

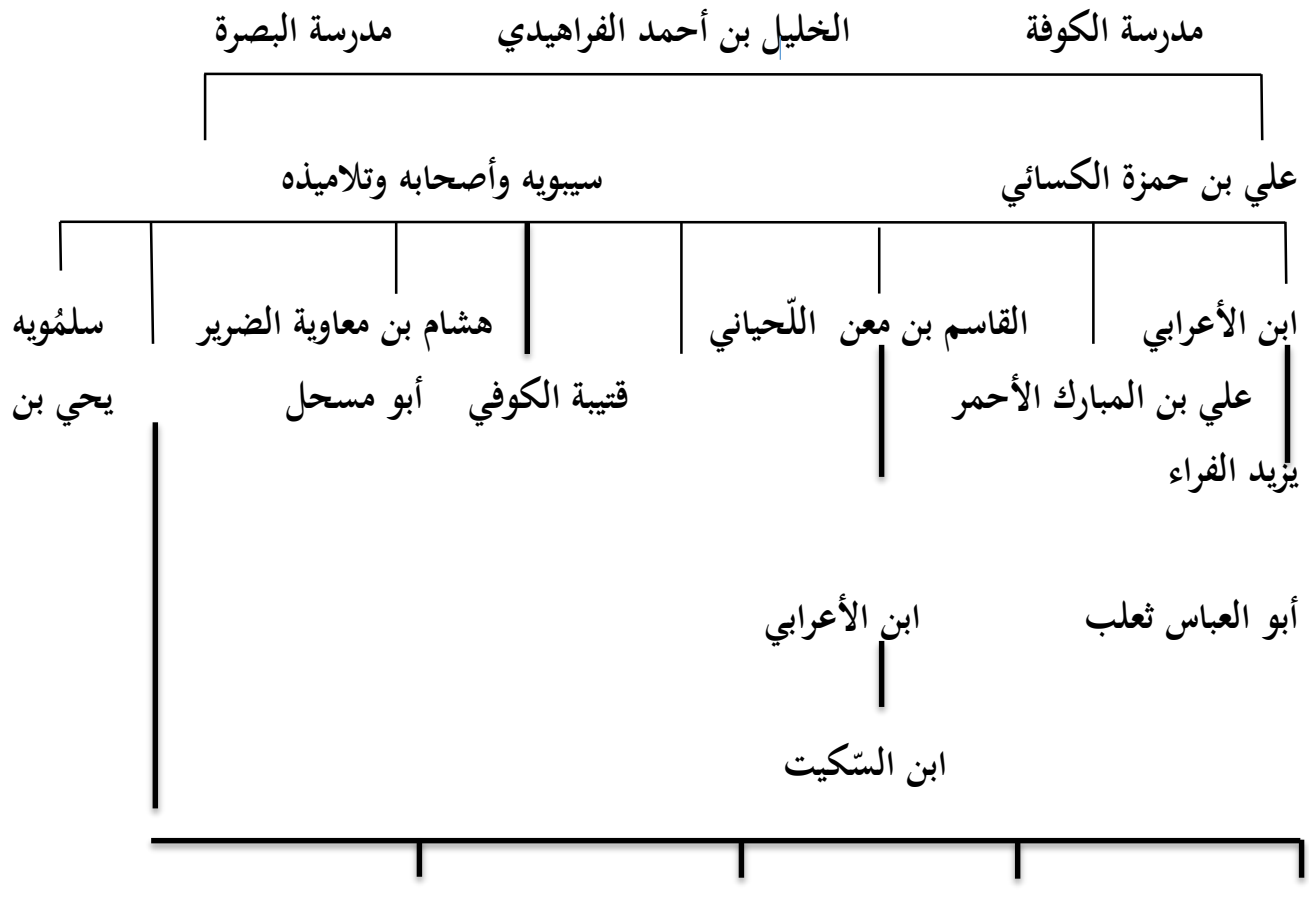

3-مصادر الدّراسة الكوفية

ظهرت المدرسة الكوفية-كما هو مشهور-بعد المدرسة البصرية بحوالي مائة سنة؛ ففي الوقت الذي نضجت فيه الدّراسة النّحوية في البصرة على أيدي الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه، بدأت بوادر الدّراسة الكوفية تشقّ طريقها إلى النّور. ولعل ملامح الدّرس النّحوي الكوفي اتّضحت بخاصة مع الكسائي فهو الذي خطّ للكوفيين منهجهم في الدّراسة، واستكمله من بعده تلميذه الفراء.

وقد انبنى النّحو الكوفي على مصادر معلومة شابهت مصادر البصريين وزادت عليها، ويمكن حصرها في الآتي: [1]

أ. النّحو البصري: وقف النّحاة الكوفيون على النّحو البصري مشافهة أو مناقلة، كما أفادوا من أعمال البصريين، وكان لهم منها نقاط ارتكاز اعتمدوا عليها في منهجهم الجديد.

وقد تلقى النّحاة الكوفيون النّحو البصري عن أساتذته: فأبو جعفر الرؤاسي أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وأخذ الكسائي عن يونس بن حبيب والخليل بن أحمد، بل هو الذي وجّهه إلى الارتحال إلى البادية، ومثله فعل الفرّاء؛ فقد قرأ على يونس بن حبيب، وكان قد درس " الكتاب" لسيبويه على الأخفش الأوسط، وكان الفرّاء قد وقف عليه، واحتفظ لنفسه بنسخة منه، فعناية الكوفيين بالكتاب لسيبويه ليست بأقل من عناية البصريين به، إلا أنّهم كانوا يقفون منه في أغلب الأحيان موقف النّاقد، وكانوا يستمدون منه مادة درسهم الأولى، وإن كانوا يخفون ذلك بدافع من العصبية.

(1) ينظر: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص:327، وما بعدها.
و: إبراهيم السامرائي: المدارس النحوية "أسطورة وواقع"، ص: 141، وما بعدها.

ب. القرآن الكريم وقراءاته: اتّخذ الكوفيون –مثل البصريين–القرآن الكريم مصدرًا لاستنباط أحكامهم وبناء أصولهم، وزادوا عليهم بأن اتّخذوا القراءات القرآنية مصدرًا رئيسًا في استنباط الأحكام خلافًا للبصريين الذين وقفوا منها موقفا متشدّدًا.

ومن ثمّ استحدث الكوفيون مادة جديدة هي القراءات في استخراج أحكامهم، وهذا كان أحد الأسباب المنهجية للخلاف النحوي بينهم، وبين البصريين.

ج. الشّعر العربي: اشتهرت الكوفة منذ تمصيرها برواية الأشعار والأخبار؛ حيث كثُر فيها رواة الأشعار والشّعراء، وحفظت ذخائر العرب في حياتهم، ومعاشهم بما روي من مطولات ومقطعات تتصل بالحماسة وغيرها من الموضوعات التي كانت تهمّ العرب.

وعلى هذا كان الشّعر في الكوفة أكثر ممّا في البصرة، واتخذه النّحاة الكوفيون مصدرًا من مصادر استشهادهم ومحتجا لهم، وأساسا بنوا كثيرا من أصولهم عليه.

وقد استشهد الكوفيون بالشّعر العربي: جاهليّه، وإسلاميّه، ومحدثه.

وكان للكوفيين عناية فائقة بالشواهد والنوادر، وكان من بين أصحاب الكسائي والفراء وثعلب حفظة لهذه الشّواهد كعلي بن المبارك الأحمر صاحب الكسائي الّذي قيل إنه كان يحفظ أربعين ألف شاهد في النّحو.

وكان نتيجة ذلك أن كثرت الشّواهد الشّعرية عند الكوفيين إذا ما قيست بعددها عند البصريين، وإن كان قد قُدح في شعر الكوفة بأن أكثره موضوع، ومنْتحل ومنسوب إلى منْ لم يَقُله.

د. لغات الأعراب: وأمّا عن لغات الأعراب التي استشهد بها الكوفيون، فقد شملت لغات القبائل التي استشهد بها البصريون، والتي سبق التّعرض إليها.

وأضاف الكوفيون إلى تلك اللّغات لغات أخرى أبى البصريون الاستشهاد بها، وهي لهجات عرب الأرياف الذين وثقوا بهم كأعراب سواد الكوفة من تميم وأسد، وأعراب سواد بغداد من أعراب الحطمية الّذين غلّط البصريون لغتهم ولحّنوها، واتهموا "الكسائيّ" بأنه أفسد النّحو إذ وثق بهم وأخذ عنهم، واحتج بلغتهم على "سيبويه" في المناظرة التي جرت بينهما في المسألة الزنبورية.

وأَخْذُ الكوفيين باللّهجات التي أباها البصريون لا يعني أنهم كانوا يترخّصون كل الترخّص في قبول اللّهجات واللّغات، ولكنهم وثقوا بأولئك، ورأوا لغاتهم تمثّل فصيحًا من اللغات لا يصح إغفَالُهُ.

كما اعتدّ الكوفيون بكلام الأعراب الفصحاء الذين ارتحلوا إلى الحواضر العلمية فقد روي عن "الفراء" أنه أخذ عن أعراب وثق بهم مثل: أبي الجراح، وأبي ثروان وغيرهما، وأخذ نبذًا عن يونس، وعن أبي زياد

الكلابي، وهؤلاء –عدا يونس–من أشهر الأعراب الّذين ارتحلوا إلى الحواضر، وسمع منهم العلماء من البصريين والكوفيين على نحو ما ذكره "ابن نديم" في كتابه الفهرست. (1)

إلا أنّ ما يعاب على الكوفيين ــعلى غرار البصريينــ إغفالهم مصدرا مهما من مصادر الدراسة اللغوية، وهو الحديث النبوي الشريف؛ بحيث استشهدوا به إلا نادرا، ولم يكن مقصودا لذاته، وبذلك ضيعوا على اللغة مصدرا كان سيثري أحكام العربية وقواعدها إلى درجة تفوق التصور.

4–منهج الدّراسة في الكوفة:

لم تمرّ الدّراسة النّحويّة في الكوفة بكل المراحل التّطوريّة الّتي مرت بها الدّراسة النّحوية في البصرة؛ لأنّ البصرة حتّى عصر الخليل استأثرت بهذا العمل وحدها، وتعهّدته بالنّمو قبل أن يتاح للكوفة أن تشارك فيه، ذلك أن الدّارسين في الكوفة –وهم من الصحابة والتابعين والفقهاء والقراء والمحدثين–كانوا قد انصرفوا إلى رواية القراءات والأحاديث، وإلى استخراج الأحكام الشرعيّة من نصوص الكتاب والسنّة، وإلى إعمال الرأي في القضايا التي لم يجدوا إلى الإفتاء فيها سبيلًا من نصوص القرآن والأحاديث.

ومن ثمّ فمنهج الكوفيين هو المنهج الذي سلكه الكسائيّ، وهو ينبني على **أسس بصريّة كوفيّة**. (2)

وأمّا الأسس البصريّة فهي الخطوط الّتي تأثّر بها "الكسائيّ" بدراسته على "الخليل" وغيره من البصريين، مثل يونس بن حبيب والأخفش الأوسط.

وأمّا الأسس الكوفيّة فهي الخطوط الّتي تأثّر بها الكسائيّ في بيئته العلميّة الأولى يوم كان قارئا مَعْنِيًّا بالرّواية والنّقل شأن القرّاء والمحدّثين الّذين طغى منهجهم على البيئات العلميّة في الكوفة.

ومنهج الكوفيين قائم على أسس محدّدة يمكن إيجازها فيما يلي:

1. اتّساع الكوفيين في الرّواية بحيث لم يتشدّدوا في فهم الفصاحة كما تشدّد البصريون، وقد عرضنا لأشكال توسّعهم في مصادر السّماع مقارنة بالبصريين ومن ثمَّ كانت مادتهم اللّغويّة أوفر.
2. اتّساع الكوفيين في القياس، فإذا كان شرط صحّة القياس عند البصريين هو الكثرة، فإنّ الكوفيين عُرِفوا بالقياس على المثال الواحد، لأنّهم إذا سمعوا لفظًا في شعرٍ أو نادر كلام جعلوه بابًا كأنّهم كانوا يشعرون بأنّ ما قاله الأعرابيّ أو الأعرابيّة إنّما يمثّل بيّنة لغويّة لا يصحّ إغفالها، وهذا يتناسب مع الطّابع النّقليّ الغالب على أفكارهم.

---

(1) ينظر: ابن النديم: الفهرست، ص: 204–214.

(2) ينظر: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: 368، وما بعدها.

3. حرصهم على أن تكون الأصول خاضعة في شكلها النّهائيّ للأمثلة المستعملة المسموعة، فما يكادون يسمعون مثالًا يَشُذُّ عن أصلٍ موضوعٍ حتّى يسارعوا إلى إعادة النّظر في هذا الأصل وتغييره حتّى يتلاقى في هذا المثال.
4. استبعادهم أساليب المنطق، ومجافاتهم للتّأويلات الّتي يخالفها الظّاهر، واجتنابهم للتّأويلات الفلسفيّة، والتّأثّر بالعلوم العقليّة الّتي بدت معالمها واضحة في النّحو البصريّ.
5. قلّة الكلام الشّاذ الّذي يكثر في النّحو البصريّ لاعتدادهم بالمثال الواحد واتّخاذه أصلًا في بناء القاعدة.
6. غلبة النّقل على العقل في أحكامهم، وعدم عنايتهم بالتّعليلات والتّخريجات العقليّة كما هو حال البصريين.

المحاضرة 8:

المدرسة البغدادية وأعلامها.

المحاضرة الثامنة: المدرسة البغدادية وأعلامها.

تمهيد: مدينة بغداد وبوادر ظهور درس نحوي جديد فيها:

كانت بغداد قرية صغيرة فيها سوق تجاري عظيم، تحيط به قرى صغيرة تتعامل معها، وأصبحت بعد الفتح الإسلامي من أرض الخراج التي جعلها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقفًا.

وبقيت كذلك حتى جاء أبو جعفر المنصور فأسّس فيها عاصمة ملكه سنة 145هـ، وانتقل إليها سنة 149هـ. وقد بناها ليجعلها مقرًّا لخلافته ينتقل إليها من "الهاشمية" التي اختطها أخوه أبو العبّاس السفّاح قرب الكوفة، وجعلها عاصمة الخلافة العباسية، فلمّا مات السفاح بقي المنصور فيها إلى أن انتقل إلى بغداد، بعد أن أحسّ أن مقامه بين أهل الكوفة، أو قريبًا منهم يعرضه لمخاطر كثيرة ومتاعب متنوعة بسبب استئثار العباسيين بالخلافة دون أبناء عمّهم من العلويين الذين كان الكوفيون يشايعونهم.[1]

ومنذ تأسيس بغداد توالت الهجرات إليها من مدن العراق المتعددة وغيرها، وعرفت الدولة مراحل من التطور والرخاء، لا سيما مع تشجيع الخلفاء العباسيين على العلم والرفع من شأن العلماء.

فتوالت هجرات العلماء إلى بغداد كذلك، ولم يشذّ عنهم النحويون، لا سيما الكوفيين منهم؛ حيث قرّبهم الخلفاء العباسيون منهم وخصّوهم بتربية أبنائهم، وهكذا استطاع نجم النحو الكوفي أن يسطع في بغداد مع تراجع صيت النحو البصري، حتى جاء عهد ثعلب الكوفي والمبرد البصري باجتماعهما في بغداد، وكان لتنافسهما السبب الرئيس في ظهور اتجاه نحوي جديد يأخذ من المذهبين معًا هو المذهب البغدادي.

ومن هاته المعطيات يمكن أن نوجز عوامل ظهور المذهب البغدادي في النحو في عاملين رئيسين:

الأول: ازدهار الحركة العلمية في العصر العباسي الأول، وتشجيع الخلفاء على العلم وتحفيز العلماء وتقريبهم ومنهم النحويون، ولا سيما الكوفيون.

الثاني: شدّة التنافس بين المذهبين البصري والكوفي باجتماعهما في عاصمة الخلافة "بغداد"، ما جعل المهتمين بعلم النحو يتأرجحون بين هذا المذهب وذاك، حتى ظهرت نخبة مزجت النحوين معًا وأخرجت المذهب البغدادي القائم أساسًا على الانتخاب، والذي عرف أوجه شهرته في القرن الرابع للهجرة زمن ابن جني وشيخه أبي علي الفارسي.

1-قصة أبي العباس ثعلب مع أبي العباس المبرد، وأثر ذلك في نشأة النحو البغدادي:[2]

---

(1) ينظر: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص: 194.

(2) ينظر: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: 146، 147.

أبو العباس ثعلب –على ما مرّ بنا في المدرسة الكوفية–هو ثالث ثلاثة قامت على أكتافهم المدرسة الكوفية بالرغم من تأخره النسبي عن الكسائي والفراء.

وقد تصدر مجالس التدريس في بغداد منذ زمن مبكر من حياته، وحاز الرئاسة العلمية، واشتهر في البيئات العلمية وهو في سن الخامسة والعشرين.

اجتمع حول ثعلب من أصحابه وتلاميذه: علي بن سليمان الأخفش، وإبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي نفطويه، وأبو بكر محمد بن عبد الملك السراج، والمفضل بن سلمة بن عاصم، وأبو إسحاق الزجاج.

وكان يلقّنهم المسائل النحوية على المذهب الكوفي، ويدرّبهم على المناظرات ويبعث بهم إلى كلّ من تحدّثه نفسه أن يتصدر حلقة، أو ينصب نفسه أستاذًا للتدريس في مساجد بغداد، حتى وصل المبرد بغداد.

دخل المبرد بغداد بعد أن كان محظيًّا في سامراء من قبل المتوكل (هو والبحتري والفتح بن خاقان)، فلمّا قُتل المتوكّل ضاقت حاله فارتحل إلى بغداد، ولم يكن يعرف أحدًا من أهلها، وانتهى به المطاف إلى المسجد الذي يرتاده ثعلب للصلاة والإملاء.

فتوخّى صلاة الجمعة في المسجد، ولما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضر وسأله أن يفاتحه السؤال ليسبب له القول، فلم يكن عند من حضر علم، فلمّا رأى ذلك رفع صوته وطفق يفسر رافعا صوته فصارت حوله حلقة، فرآه ثعلب وأرسل كعادته تلميذه "الزجاج" وابن الحائك للنهوض وفض الحلقة، ولكنهما حين سألاه أقنعهما جوابه، وانتهت بأن قال الزجاج لصاحبه: "عودوا إلى الشيخ–يعني ثعلب–فلست مفارقًا هذا الرجل".

قضت هذه الحادثة على كل سلام بين الرجلين؛ إذ غذت المنافسة التقليدية بين ممثلي المدرستين، وأفقدت ثعلب أحد أصحابه النابهين، وبدأت تهدّد مركزه العلمي في أواسط بغداد العلمية؛ حتى إن ختنه أبا علي أحمد بن جعفر الدينوري كان يتجاوز صهره ثعلب ويجلس إلى المبرد يقرأ عليه كتاب سيبويه.

ومنذ ذلك الزمن بدأ نجم النحو البصري يسطع من جديد في عاصمة الخلافة العباسية "بغداد" بعد أن ظلّ منبوذًا ردحًا من الزمن.

2–اتجاهات النحويين زمن المبرد وثعلب: [1]

(1) ينظر: خديجة الحديثي: المدارس النحوية، ص:221، 222.

و: شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص: 246، 247.

تكوّنت من رجال الشيخين المبرّد وثعلب طبقة جديدة من الدارسين تنوّعت ميولهم ونزعاتهم، واحتدم الصراع بينهم فترة من الزمن، فمنهم من كان بصري النزعة، ومنهم من كان كوفيًّا، ومنهم من أخذ من المذهبين معًا.

ولعلّ أشهر النحويين في كل اتجاه –بحسب رأي القدامى–نورده بإيجاز في الآتي:

أ/ من ظلّ بصريًّا: ومنهم: الزجاج، وابن السرّاج، والزجاجي تلميذ الزجاج، والمبرمان، وابن درستويه.

ب/ من ظلّ كوفيًّا: وأشهر هؤلاء: الحامض، وأبو بكر محمد بن القاسم الأنباري.

ج/ من خلط المذهبين:[1] ومنهم: ابن قتيبة وابن كيسان والأخفش الصغير وابن شقير وابن الخيّاط، ونفطويه، والخزّاز، ولعل غيرهم كُثُر على ما ذكره ابن النديم في "الفهرست".

وأمّا على رأي بعض المحدثين فيذكر الأستاذ "شوقي ضيف" أنه كان في المدرسة البغدادية منذ بداية ظهورها اتجاهان بارزان:[2]

الاتجاه الأول: وهو اتجاه مبكر عند ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط، نزع فيه أصحابه إلى آراء المدرسة الكوفية، وأكثروا من الاحتجاج لها، مع فتح باب لكثير من آراء المدرسة البصرية، وأيضًا مع فتح باب الاجتهاد لبعض الآراء الجديدة.

الاتجاه الثاني: وهو اتجاه مقابل عند الزجاجي، ثم عند أبي علي الفارسي وابن جني من بعده، نزع فيه أصحابه إلى آراء المدرسة البصرية، وهو الاتجاه الذي ساد فيما بعد ليس في مدرسة بغداد فحسب، بل في جميع البيئات التي عنيت بدراسة النحو.

3-أشهر أعلام المذهب البغدادي:

يظهر من آراء المحدثين أن المذهب البغدادي إنما سطع نجمه في القرن الرابع للهجرة، وبخاصة زمن: **أبي علي الفارسي** وتلميذه **ابن جني**، وسلك دربهما نحاة كثر أعقباهما، ومن أشهرهم: **الزمخشري، وابن الشجري، وأبو البركات الأنباري، وأبو البقاء العكبري، وابن يعيش، والرضي الأستراباذي.**

4–خصائص المذهب البغدادي:

يمكن إجمال ما تميزت به هذه المدرسة في الآتي:

1- جمعت المدرسة البغدادية بين المذهبين البصري والكوفي، وعُرفت بأنها مدرسة انتخابية تختار من آراء المدرستين البصرية والكوفية

(1) ينظر: ابن النديم: الفهرست، ص: 347-406.

(2) ينظر: المدارس النحوية، ص: 248.

2-اللجوء إلى التّحليل والتّأويل والحجاج والجدل المصحوب بالاستدلال والتّعليل أهم ما ميّز الدّرس النّحوي، فابن جني مثلا أكثر من التّعليل، وكذلك ابن كيسان الذي اعتمد على التعليل ودفعه ذلك إلى تأليف كتابه" المختار في علل النّحو".

3- اللّجوء إلى استعمال أسلوب تقسيم الموضوع إلى أجزائه وأحواله وأنواعه، ثمّ حدّ كل جزء منها بما يميزه من الأجزاء والأنواع الأخرى، ثم البدء بالاستدلال عليها والاحتجاج لها والتّعليل لما هو محتاج لذلك.

4- تأثر بعض البغداديين بألفاظ أهل المنطق وعلم الفلسفة ومصطلحاتهم، فاستخدموها في كتبهم اللّغوية والنّحوية، كالعرض والجوهر والعلة وعلة العلة والدليل والحجة إلى غير ذلك.

5- الاعتماد على الفصيح من المسموع والتّثبت منه، ويمثل ذلك كتاب ابن جني(الخصائص)، الذي اهتم فيه بالموضوعات الصّرفية والنّحوية والصّوتية.

6-اهتمام بعض منهم بالعامل النّحوي، ووضعوا له الأحكام والأصول، منهم ابن كيسان المتأثر بالبصريين، فلم يجز تقديم المعمول على العامل.

المحاضرة 9:

الاختلاف النحوي بين مدارس النحو "1"

المحاضرة التاسعة: الاختلاف النحوي بين مدارس النحو "1"

مقدمة

ظهر النحو العربي في زمن مبكر من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وقطع مسيرة قرون من الزمن تعدّدت فيها بيئاته وأصوله ومرجعياته، ما خلّف تراثًا نحويًّا قيّمًا توالت فيه أسماء النحويين ومؤلّفاتهم إلى حدّ يستحيل فيه على السفر العظيم احتواءها كلّها.

وقد عرف النحو مراحل من التطوّر من حيث كونه نحوًا وصفيًّا في نشأته الأولى إلى كونه نحوًا معياريًّا يُعنى بالقياس والعلل والعوامل، أضف إلى ذلك ظهور الخلافات النحوية منذ زمن مبكر من تاريخه، والتي شكّلت حيّزًا معتبرًا منه، حتى ليخال الدارس أنّ النحو كلّه مبني على الخلاف.

1-مفهوم الخلاف:

أ) لغة: درج الاستعمال على قول: الخلاف النحوي والاختلاف النحوي، ويدلان في العموم على عدم الاتفاق.

كما أنهما يرجعان إلى أصل اشتقاقي واحد وهو "خَلَفَ". يقول ابن فارس(395هـ): «الخاء واللام والفاء أصول ثلاثة: أَحَدُهَا أَنْ يَجِيءَ الشَّيْءُ بَعْدَ شَيْءٍ يَقُومُ مقَامَه، والثاني: خِلَافُ قُدَّامَ، والثالث: التَّغْيِيرُ». [1]

والمعنى الأول أنسب للخلاف الذّي نحن بصدده، قال ابن فارس: «وَأَمَّا قَوْلهُم اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي كَذَا خِلْفَةً أي مُخْتَلِفُونَ: فَمِنَ الأَوَّلِ؛ لأن كل واحد منهم يُنَحِّي قول صاحبه، ويقيم نَفَسه مُقَام الَّذِي نَحَّاهُ.» [2] والخلاف والاختلاف مصدران، والخلاف: المضَّادَة، والمخَالَفَة، وأمّا الاخْتِلَافُ فهو مصدر اِخْتَلَفَ، والاِخْتِلَافُ نَقِيضُ الاتِّفَاقِ، يقال: تَخَالَفَ الأَمْرَانِ وَاخْتَلَفَا: لم يَتَّفِقَا، وكُلُّ مَا لم يَتَسَاوَ فَقَد تَخَالَفَ وَاخْتَلَفَ. [3]

(1) مقاييس اللغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د. ط)، 2001، 1/،374 مادة (خ ل ف).

(2) مص. ن، 375/1، مادة (خ ل ف).

(3) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، (د. تح)، دار صادر، ط3، بيروت، لبنان، 1994، 96/9، 91، مادة (خ ل ف).

وقال الراغب الأصفهاني (ت 403هـ): «الاخْتِلافُ وَالمخَالَفَةُ أَنْ يَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ طَرِيقًا غَيْرَ طَرِيقِ الآخَرِ فِي حَالِهِ أو قَوْلِهِ. والخِلَافُ أَعَمُّ مِنَ الضِّدِّ لأنَّ كُلَّ ضِدَّيْنِ مختَلِفان، وَلَيْسَ كُلُّ مختَلِفَيْن ضِدَّيْن. وَلما كَانَ الاخْتِلافُ بَيْن النَّاسِ فِي القَوْلِ قَدْ يَقْتَضِي التَّنَازُعَ استُعِيرَ ذَلِكَ لِلمُنَازَعَة والمجَادَلَة». [1]

والمعنى اللغّوي للخلاف من عدم الاتفاق لا يبتعد عن المعنى الاصطلاحي.

ب) اصطلاحًا: عرّف الشريف الجرجاني (816هـ) الخلاف قائلا: «هو منازعة تجري بين المتعارضين لتحقيق حق، أو لإبطال باطل» [2] ما يعني أن الخلاف يقتضي وجود شخصين يتعارضان في مسألة ما، على أن يكون لكل منهما حججه وأساليبه لرّد رأي غيره.

ولمّا كان مجالنا النحو؛ فيمكن أن نقول: إن المسائل الخلافية هي المسائل النحوية التي لم يتفق عليها من يعتدّ بخلافه من العلماء. وله صور متعددة نلحظها في مطالعتنا لكتب النحو بما قد يجعل بعضنا يخال أن النحو كلّه مبنيٌ على الخلاف.

وإذا كان مصطلح الخلاف هو الشائع في الاستعمال؛ فإننا نلحظ بعض المصطلحات التي قد تعبّر عن عدم الاتفاق بين النحاة، منها: الاعتراض، والتعقّب، والردّود.

2-لمحة عامة عن الخلاف النحوي "أنواعه وتاريخه وأسبابه وصوره".

يقترن "الخلاف النحوي" في ذهن أكثر المعتنين بالنحو العربي **بالخلاف المذهبي** بين البصريين والكوفيين ضمن إطار زماني ومكاني معينين، على نحو ما يصوّر لنا كتاب" الإنصاف في مسائل الخلاف" لابن الأنباري جانبًا منه.

والحق أنّ الخلاف أوسع من أن يتقيّد بما كان بين المذهبين المشهورين؛ لأنّ ثمّة ضربًا آخر من الخلاف هو **"خلاف الأفراد"** الّذي مسّ حتى أعلام المذهب النحوي الواحد. ويعني مخالفات أفراد النحويين بعضهم بعضًا، أو مخالفة بعضهم مذهب الأكثرين، أو تفرّد بعضهم بآراء على خلاف المشهور.

وهذا الضرب من الخلاف يمثّل أوليّة الخلاف النحوي عامة، وهو الذي استمرّ على امتداد تاريخ النحو العربي وتعدّد بيئاته.

بل يمكن الذهاب إلى أبعد من هذا لنقول: إنّ الخلاف المذهبي ذاته كان امتدادًا لخلاف أفراد النحويين من المذهبين، فلمّا استمرّ نحاة كلّ مذهب على رأي أوّلهم أخذ الخلاف إذذاك الطابع المذهبي، مثال ذلك

---

(1) ينظر: الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: يوسف الشيخ محمود البقاعي، دار الفكر، ط1، بيروت، لبنان، 2006، ص: 119.

(2) التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، (د. ط)، القاهرة، مصر، 2004، ص: 89.

"المسألة الزنبورية" فالأصل فيها أنّها خلاف بين شخص سيبويه البصري والكسائي الكوفي، ولما استمر البصريون على رأي إمامهم سيبويه، واستمرّ الكوفيون على رأي إمامهم الكسائي أخذت المسألة الطابع المذهبي على نحو ما هي واردة في إنصاف ابن الأنباري. (1)

وإذا أردنا أن نؤرّخ للخلاف النحوي عامة عاد بنا الزمن إلى بدايات النحو العربي زمن المدرسة البصرية لنقف على عيّنات كثيرة من مخالفات جمهور البصريين بعضهم بعضًا.

وهناك رواية تذهب إلى أن أول ما يعرف من اختلاف النحويين يمتدّ إلى زمن نصر بن عاصم (89هـ) –صاحب نقط الإعجام–فقيل:" أغلب الظنّ أنّ أول اختلاف وقع بين النحويين بصفة عامّة كان في مسألة: أيُحْذَف التنوين للالتقاء الساكنين أم لا؟" فذهب نصر بن عاصم إلى ضرورة حذفه، وأمّا سائر النحويين فلا يرون في بقاء التنوين مع التقاء الساكنين بأسًا. (2)

ومظاهر الخلاف بين جمهور النحويين البصريين بارزة في "الكتاب" لسيبويه؛ ففي مواضع كثيرة منه نجد صاحبه يعقّب على آراء شيخيه الخليل(175هـ) ويونس بن حبيب (182هـ) وغيرهما بعبارات من نحو: "وزعم الخليل، وزعم يونس" (3) ما يدلّ على عدم قناعته بآرائهما.

كما يذكر أن يونس بن حبيب كانت له بعض آراء تفرّد بها عن أصحابه البصريين ما يعني اختلافه عنهم، وعدّ بعضهم تلك الآراء النواة التي عليها تلميذه الكسائي نحوه الكوفي بإزاء النحو البصري. (4)

كما خالف الأخفش الأوسط جمهور النحويين البصريين في مسائل كثيرة، ومثله خالف المبرد سيبويه في مسائل جمعها في كتاب سمّاه "مسائل الغلط"، وغير هذا كثير، وإنّما يدلّ على أن مخالفات النحويين البصريين بعضهم بعضًا واقع ثابت لا سبيل إلى إنكاره.

ومثل هذا يقال عن النحويين الكوفيين؛ فقد ورد أن الفراء خالف شيخه الكسائي في غير موضع، واستمر الحال كذلك عند النحويين الآتين بعدهم، بما لا يسع معه التمثيل بفرد دون آخر، أو بزمن دون آخر.

---

(1) ينظر: ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د. ط)، دار الطلائع، القاهرة، مصر، 2005، 2/ 224 وما بعدها.

(2) ينظر: نوري المسلاتي: أسباب اختلاف النحاة من خلال كتاب الإنصاف لابن الأنباري، ص: 64.

(3) ينظر: سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، (د.س)، 2/ 13، 27، 65، 4/ 162، 176.

(4) ينظر: شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص: 155.

وأمّا إذا أردنا التأريخ للخلاف المذهبي بين البصريين والكوفيين، فيُذْكَر أن أوّليته كانت فيما حكاه سيبويه في كتابه من أقوال أبي جعفر الرّؤاسي الكوفي نقلًا عن شيخه الخليل بن أحمد. وقد ضعّفت هذه الرواية من وجوه. (1)

وذكر أحد المحدثين أن منطق العقل وواقع التقعيد يحتمل أن يكون أوّل اختلاف مذهبي واقع في الإعراب: أحركة هو أم حرف؟ فذهب البصريون إلى أنّه حركة لما كان الإعراب بالإجماع يدخل على حرف الإعراب، ولو كان حرفًا لما دخل على حرفٍ، في حين ذهب الكوفيون إلى أنّه يكون حركة وحرفًا، فإذا كان حرفًا فإنّه يقوم بنفسه، وإذا كان حرفًا لم يوجد إلّا في حرف. (2)

وفي رواية أخرى قيل: إن الخلاف المذهبي ابتدأ زمن سيبويه والكسائي فيما اشتهر بـ «المسألة الزنبورية». واحتدم مع النحويين الذين أعقباهما ليبلغ ذروته زمن المبرّد البصري وثعلب الكوفي باجتماعهما في بغداد؛ حيث برزت العصبية المذهبية بقوّة. حتى قيل إن ثعلب هو الذي أفضى طابع العصبية على الخلاف، وهو من ألحّ على عرض رأي المذهبين البصري والكوفي بجانب بعض. (3)

وعند ثعلب والمبرد يتوقف النشاط الكوفي بعدّه مزاحمًا للنشاط البصري؛ إذ بدأت على عهدهما تلوح ملامح مدرسة نحوية جديدة تختار من آراء المذهبين وتحاول التوفيق بينهما وهي: المدرسة البغدادية. (4)

بل يمكن القول: إن المدرسة البغدادية تعدّ من ثمار الخلاف النحوي.

وإذا كان الخلاف المذهبي قد خبت ناره في زمن محدّد، فإنّ خلاف الأفراد استمرّ على امتداد تاريخ النحو العربي، وعيّناته لا تعدّ ولا تحصى، يكفي أن تطّلع على أحد مطولات كتب النحو مثل كتاب " التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل" لأبي حيّان الأندلسي لتقف على كثرة الخلافات النحوية في مسائل النحو على تعدّدها بما يجعلك توافق دون تردّد قول أحد المحدثين —بعد أن عرض للخلاف بين

---

(1) ينظر: شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص: 153، 154.

و: نوري المسلّاتي: أسباب اختلاف النحاة من خلال كتاب الإنصاف لابن الأنباري، ص:66، 67.

(2) ينظر: نوري المسلاتي: أسباب اختلاف النحاة من خلال كتاب الإنصاف لابن الأنباري، ص: 67.

(3) ينظر: محمد خير الحلواني: الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار القلم العربي، (د. ط)، حلب، سوريا، ص:44.

(4) ينظر: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: 393.

المذاهب النحوية وما تفرع منها من خلافات الأفراد: «يكاد يكون لكل إمام مذهب يخالف فيه غيره، ولو من بعض الوجوه». [1]

والذي ينبغي التنبيه عليه بعد كلّ ما سبق عرضه أنّ الخلاف النحوي سواء أكان خلاف أفراد أم خلافًا مذهبيًّا لم يكن يصدر عن مجرّد هوىً أو رأي، وإنّما كان نتيجة حتمية لعدد من الأسباب والعوامل المنهجية، منها –إجمالًا-: الاختلاف في مصادر الاستشهاد، والاختلاف في حدّ القياس، ، والتفات في الاعتداد بالأصول النحوية، وكذا طبيعة النحو الاجتهادية؛ فقد كان كل نحوي يجتهد بقدر ما يملك من حسّ لغويّ ونفاذ ذهنيّ يفهم بهما العبارة العربية فهمًا يختلف عن فهم أقرانه من النحويين[2]، وكذا أثر التفاوت في القدرات العقلية ومقدار العلم ذاته. فكلّ تلك أسباب جعلت الخلاف أمرًا منطقيًّا إن لم نقل حتميًّا، حتى إنّنا نجد آراء انفرد بها نحويون معيّنون، أفرد لهم السيوطي بابًا في كتاب " الأشباه والنظائر" سمّاه" **البتر الذائب في الأفراد والغرائب**". [3]

يضاف إلى الأسباب: اختلاف النحويين في فهم النصوص واختلافهم في فهم علّة الحكم، وجهلهم بالدليل لعدم بلوغه أو ربّما عدم الوثوق بصحة الدليل الذي عند الآخرين.

ويلحق بالعوامل المذكورة آنفًا عوامل غير منهجية أسهمت بخاصة في إذكاء نار الخلاف المذهبي، منها: تباين الطابع العلمي لمدينتي البصرة والكوفة ممّا أثّر بدوره في اختلاف طابع الدراسة في المدرستين البصرية والكوفية، وكذا التعصب البيئي والسياسي وحتى الدّينيّ، بل إن الدوافع النّفسية كحبّ الغلبة والنيل من الآخر والطمع في الدنيا ونيل المنزلة في بلاط الخلفاء كان لها أثر في الخلاف. [4]

وتِعداد أسباب الخلاف والعوامل المؤدّية إليه لا يمكن حصرها بأيّ حال من الأحوال، بل يمكن القول إنّ لكلّ مسألة خلافية خصوصيتها وأسبابها.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الّذي نخلص إليه أنّ الخلاف النحوي حقيقة لا جدال فيها في الفكر النحوي العربي، وصوره بارزة في إرثنا النحوي، ومتنوّعة منها: الخلاف في المصطلح النحوي، والخلاف في

---

(1) ينظر: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: 143، 144.

(2) ينظر: محمد خير الحلواني: الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، ص: 69، 70.

(3) ينظر: السيوطي: الأشباه والنظائر، مراجعة وتقديم: فايز ترحيني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1996، 3/71-84.

(4) ينظر: محمد خير الحلواني: الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، ص: 33.

العامل النحوي والعلل، والخلاف في تقسيمات الكلمة، وفي مسائل لغوية من مثل أصل الاشتقاق، وصورٍ أخرى، لاسيما الاختلاف في الأحكام النحوية التي تضبط استعمال اللغة العربية، وتصل بالمتكلم إلى تحقيق مستوى الصواب اللغوي.

ولعلّ كثرة الخلافات وتعدّد صورها هي التي جعلت كثيرين يعدّونه ظاهرة سلبية تنم عن ضعف النحو العربي، وأن لا فائدة منه إلّا التكثير في إيراد الآراء في المسألة الواحدة بما يثقل كاهل المتعلم، ويزيد من نفوره من النحو.

فهل هاته هي حقًّا حقيقة الخلاف النحوي؟ أم إنّه يخفي من الإيجابيات ضعف ما يُحمَّل من السلبيات؟

3-أهمية الخلاف النحوي:

يحيل مصطلح "الخلاف" عند عامة الباحثين على اضطراب في قواعد النحو، وكثرتها وتباينها بما يثقل كاهل الدارسين. ويعتقد بعضهم أن التعدّد في الآراء مردّه إلى اضطراب أصول الصناعة النحوية ذاتها؛ إذ لو كان النحو متماسكًا، مستندًا إلى أدلّة مضبوطة لما ظهر فيه الخلاف، وهذ ما جعلهم يعدّونه ظاهرة سلبية في النحو العربي، ينبغي تجاوزها والخلاص من قيودها.

وليس لنا أن ننكر أنّ بعض مسائل الخلاف، بل أبوابًا في النحو لا تظهر فائدتها في استعمالنا اللغويّ من مثل البحث في العامل، وكثرة التعليلات العقلية، والبحث في أصل الاشتقاق، ولكنّها على حدّ قول أبي حيّان الأندلسي " أمور أفضت إليها الصناعة النحوية"، يُعنى بها أربابها ممّن لهم باع في النحو، وبسطة في العلم، مجالها النحو العلمي لا التعليميّ.

وإذا الكلام السابق صائبًا في بعضه، فما هو أكثر صوابًا منه أن الخلاف النحوي وتعدّد المذاهب وكثرة الأقوال كنوز لا يقدّر قيمتها إلّا أهل العلم، وقد لا يعي حقيقتها إلّا من أدار عجلة التاريخ ليقف على حقائق مرتبطة بحياة النحويين أنفسهم من حيث كونهم أفرادًا في مجتمعات إسلامية متعدّدة الثقافات، يتأثرون ويؤثرون فيها. وفرق بين ما تصوّره لنا كتب الخلاف عن "الخلاف"، وبين معايشة مظاهره في ثنايا المناظرات والمجالس العلمية التي كانت حلبة له.

ومن هاته المعطيات يمكن القول: إنّ أهمية الخلاف تكمن في أنّه يصوّر لنا جانبًا مهمًّا من جوانب حضارتنا، ويشرح الظروف التي ألمت بها. [1] وهي ممّا لاشكّ فيه ترتبط بأصول كبرى انبنى عليها الفكر العربي الإسلاميّ برمته.

---

(1) ينظر: سيّد رزق الطويل: الخلاف بين النحويين، دار الفيصلية، ط1، مكة المكرمة، السعودية، 1985.ص: 636.

فإذا قلنا مثلًا إنّ الخلاف في العامل النحوي أخذ حيّزًا معتبرًا من مباحث النحو، وهو باب لا فائدة منه في الجانب التعليمي، كان حكمنا المطلق عليه جائرًا بعض الشيء؛ لأننّا أخذناه بمنأى عن سياقه التاريخي الذي تبلور فيه؛ لأن نظرية العامل النحوي لها ارتباط وثيق بفكر أوّل نحوي عربي وهو أبو الأسود الدؤليّ (69هـ) حين وَضْعِه "نقط الإعراب" فلفت الأنظار مذ إذٍ إلى تغيّر أواخر الكلمات لتغيّر مواقعها في التركيب، ثمّ تطوّرت أصول نظرية العامل بتأثر النحو العربي بعلوم الفلسفة والمنطق، وكان ذلك نتيجة حتمية للمعطيات الثقافية الّتي شهدها العصر العبّاسيّ، لا سيّما مع تطوّر حركة الترجمة وامتزاج الثقافات. وقد نذهب إلى أبعد من هذا لنقول: إن الخلفاء والولاة العباسيين كانت تستهويهم فنون المناظرات النحوية التي تقوم على الجدال في مسائل عقلية منها العامل النحويّ والعلل. [1] وهذا ما جعل أمثال هاته المسائل تتّسع.

ولذا وجب علينا عند تقويمنا للخلاف النحوي بصفة خاصة وللنحو العربي بصفة عامة أن نميّز بين مستويين من النحو: النحو التعليمي والنحو العلمي الّذي يطلبه أرباب التخصص، والّذي يكون فيه الخلاف النحوي مرفأ لابدّ من الوقوف عنده بصوره كلّها؛ لأنّه يسهم في استجلاء أصول كبيرة انبنى عليها الفكر العربي برمّته أسلفنا ذكره.

كما أن أهمية مسائل الخلاف نابعة من أصولها ومرجعياتها العلمية؛ فليس الخلاف صادرًا عن مجرّد هوىً أو رأي، بل هو قائم على أصول وأدلّة ومنهج، وإن وُجِد اختلاف في النحو، فالأولى ردّه إلى أسس العلم ذاته، ومن ثمّة يكون قبول المسألة الخلافية أو ردّها، والترجيح بينها على أساس الترجيح في الأصول، وهذا مجاله كذلك النحو العلمي لا التعليميّ.

وهذا ملمح إيجابيّ في "الخلاف"، يمكّن من اختيار المسائل الراجحة المبنية على أصول معتبرة لاستثمارها في تجديد النحو العربي وإصلاحه.

ثمّ إنّ اختلاف الآراء الاجتهادية يثري النحو، ويسمح له بالتطوّر، فتتّسع إذذاك الصناعة النحوية.

كما أنه ينبغي علينا عند تقويمنا للخلاف أن ننظر إليه من جهة أن كثيرًا من مسائله متصلة بالجانب الاستعمالي للغة، ومن ثمة «يمكن أن نستضيء بها في العمل على إصلاح لغتنا، وتجديد قواعدها بما يلائم ظروف أمّتنا الحاضرة، وبما لا يُخْرِج اللغة عن خصائصها الطبيعية». [2]

والكرة الآن في مرمى المحدثين للنهوض باللغة والنحو من حيث هو سبيل لحفظها، وبإمكانهم استثمار مسائل الخلاف في الجانب الإيجابيّ لا الاكتفاء بالنقد والطّعن على الأولين.

---

(1) ينظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، لبنان، 2005، 316/1.

(2) سيّد رزق الطويل: الخلاف بين النحويين، ص:636.

المحاضرة 10:

الاختلاف النحوي بين مدارس النحو"2".

المحاضرة العاشرة: الاختلاف النحوي بين مدارس النحو"2".

صور الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفية "نموذجا".

تمهيد:

جاء الخلاف النحوي نتيجة تضافر عوامل منهجية وأخرى غير منهجية. ولعلّ السبب الرئيسي في الخلاف هو اختلاف منهج الدراسة والذي كان له تأثير اختلاف مصادر الاستشهاد، ما انعكس على اختلاف المادة اللغوية المجموعة، وكان نتيجة ذلك اختلاف الأحكام النحوية بين جمهور النحويين، لا سيما البصريين والكوفيين.

غير أن صور الخلاف لم تقتصر على الأحكام فحسب، بل نجد له صورًا أخرى من مثل الخلاف في المصطلح النحوي، والعامل النحوي، وحتى في تقسيمات الكلمة.

أولا: الخلاف في المصطلح: [1]

المصطلحات النحوية التي اصطنعتها المدرستان ثلاث طوائف:

1. طائفة كوفية خالصة لم يعرفها البصريون.
2. طائفة بصرية خالصة لم يعرفها الكوفيون.
3. طائفة بصريّة كوفيّة، إلاّ أنّ لها عند البصريين اسما وعند الكوفيين اسما آخر.

أ: مصطلحات كوفية خالصة: ومنها:

1. **الخلاف:** مصطلح كوفي صرف ليس للبصريين ما يقابله، وهو عامل معنوي أعمله الكوفيون في عدة مواضع منها: أنه عامل ناصب الخبر الواقع ظرفاً. نحو: "زيدٌ أمامكَ".
2. **أحرف الصّرف:** يطلقها الكوفيون على "الواو" و"الفاء"، و "أو" التي ينتصب الفعل المضارع بعدها مسبوقة بنفي، أو طلب، وهي الناصبة للفعل عند جمهور الكوفيين.

ب. مصطلحات بصرية خالصة: ومنها:

1. **لام الابتداء:** هي مصطلح بصري لا يعرفه الكوفيون، بل ينكرونه، لأن ما يسمّيه البصريون "لام الابتداء" يسمّيه الكوفيون "لام القسم"، وعندهم أن اللام في قولهم: "لزيدٌ أفضل من عمرو: جواب قسم مقدّر، والتّقدير: " والله لزيدٌ أفضل من عمرو"، فأضمر اليمين اكتفاء باللام منها.
2. **اسم الفعل:** وليس للكوفيين ما يقابل هذا المصطلح، لأنهم يعدون أسماء الأفعال أفعالاً حقيقيّة.

---

(1) ينظر تفصيلها: إبراهيم السامرائي: المدارس النحوية: أسطورة وواقع، ص: 97-104.

3. **المفعول المطلق، وبه، وفيه، ومعه:** هذه ألفاظ بصرية لأن المفاعيل عند البصريين خمسة، هي: المفعول المطلق، والمفعول به، والمفعول فيه، والمفعول معه، والمفعول لأجله. ولا يعرف الكوفيون منها إلا المفعول به، أمّا المنصوبات الأخرى التي هي مفاعيل عند البصريين، فهي عند الكوفيين أشباه مفاعيل.

ج: مصطلحات كوفية بصرية: ومنها:

1. **الجحد:** وهو مصطلح كوفي، يقابله مصطلح " **النفي**" عند البصري.
2. **المحلّ والصفة:** وهما مصطلحان كوفيان، يقابلان مصطلح "الظرف" عند البصريين، سواء أكان ظرف زمان أو مكان.
3. **الترجمة والتبيين:** ويعني الكوفيون به ما يعنيه البصريون بـ " **البدل**".
4. **الفعل الدائم:** ويقابله اصطلاح "**اسم الفاعل**" عند البصريين.
5. **الأدوات:** ويعني الكوفيون بها ما يعنيه البصريون بـ "**حروف المعاني**".
6. **الخفض:** يقابل مصطلح "**الجر**" عند البصريين.
7. **المجهول:** وهو "**ضمير الشأن**" في اصطلاح البصريين
8. **العماد:** وهو "**ضمير الفصل**" عند البصريين
9. **النعت:** وهي "الصفة" عند البصريين.
10. **حروف الصلة، أو الحشو:** وتقابل حروف "**الزيادة**" عند البصريين، "كالباء" في قوله تعالى: {**أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ**}، فالباء هنا حرف زائد.
11. **المكني أو الكناية:** وهو الضمير عند البصريين.

ثانيا: الخلاف في أقسام الكلمة بين الكوفيين والبصريين: [1]

قسّم البصريون الكلمة إلى ثلاثة أقسام: اسم، فعل، حرف، وكذلك فعل الكوفيون.

وتتفق المدرستان على تقسيم الاسم إلى أقسامه المعروفة: من حيث تذكيره وتأنيثه، تعريفه وتنكيره، ومن حيث بناؤه وإعرابه، وإفراده وتثنيته وجمعه، ولم تختلفا إلّا في مسائل جزئية.

غير أنّ المدرستين تختلفان في تقسيم الفعل، فأمّا البصريون فيعدّون الفعل ثلاثة أقسام: فعل ماضٍ وفعل مضارع، وفعلُ أمرٍ.

(1) ينظر تفصيلها: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، 237-243.

والفعل عند الكوفيين ثلاثة أقسام كذلك؛ فهم يتّفقون مع البصريين في القسمين الأولين ويختلفون معهم في القسم الثالث، فالقسم الثالث عند البصريين هو فعل الأمر، إلا أنّ هذا الفعل عند الكوفيين مدرج ضمن الفعل المضارع ولا يعدّ قسمًا بعينه؛ لأنّ فعل الأمر حسب الكوفيين ما هو إلا فعل مضارع دخلت عليه لام الأمر (اسجد–لتسجد)

وأمّا القسم الثالث من أقسام الفعل عند الكوفيين على تسميته بالفعل الدّائم وهو اسم فاعل وهو العامل عمل فعله، نحو قراءة قوله تعالى:﴿ **فلاَ تَحْسبنَّ الله مخلف وعْدهِ رُسلهُ** ﴾.

كما اختلف البصريون والكوفيون في أسماء الأفعال، حيث قسّمها البصريون ثلاثة أقسام:

*اسم فعل ماض مثل: شتان، هيهات.

* اسم فعل مضارع مثل: أف، آه

*اسم فعل أمر مثل: صه، مه.

وهذه الطائفة من الكلمات وقعت للكوفيين أيضا فلاحظوا أنّها تعمل عمل الأفعال فلم يجعلوها بذلك قسما بذاته بل أدخلوها في طائفة الأفعال، وعدّوها أفعالا حقيقية ولم يمنعهم دخول التّنوين بعض أسماء الأفعال كصه، ومه، وآه، بالرغم من كون التّنوين من علامات الأسماء عند الفريقين.

وأمّا القسم الثالث من أقسام الكلمة وهو الحرف عند البصريين، فاصطلح الكوفيون على تسميته بالأداة. واختلف الفريقان في مواضع عديدة عند تقسيمهم لحروف المعاني.

ثالثا: الخلاف في العامل النّحوي بين البصريين والكوفيين: [1]

يبدو أن فكرة العامل قد استقرت في أذهان الدّارسين بعد الخليل بن أحمد الفراهيدي، وكان البصريون والكوفيون قد اتّفقوا على الأخذ بها ولكنهم اختلفوا في التّفاصيل اختلافا يرجع إلى ما بين المنهجين من تباين.

فمنهج أهل البصرة مستمد من منهج أصحاب الكلام الذي قد تأثروا به منذ زمن مبكر، ومنهجُ أهل الكوفة في جملته مستمد من أهل الحديث، ورواة الأدب، وهذا ما جعل الكوفيين يحتكمون إلى الرّواية أكثر ممّا يحتكمون إلى قضايا المنطق وأصول علم الكلام.

ومهما يكن من أمر فإنّ "العامل النّحوي" كان محور جدل بين الفريقين واختلافهم، وكثير من المسائل الخلافية بين المدرستين يرجع إلى اختلاف في وجهة النّظر إلى العامل.

***أقسام العوامل:** يقسم الفريقان العوامل قسمين: لفظية ومعنوية.

1: العوامل اللّفظية: وهي عند الفريقين: أفعال، أسماء، أدوات.

(1) ينظر تفصيلها عند: مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: 260–276.

*أمّا **الأفعال**: فهي عند البصريين أقوى العوامل جميعا تعمل متقدمة في الفاعل، المفاعيل، الحال، التمييز، الظروف، المجرورات، ومجال عملها الأسماء فلا يعمل فعل في فعل، والفعل والفاعل عندهم كالشيء الواحد، ولابدّ لكل فعل من فاعل سواء كان ظاهرا أم مضمرا، وسواء كان المضمر بارزا أم مستترا.

وأمّا الأفعال عند الكوفيين قوية أيضا، تعمل متأخرة كما تعمل متقدّمة، تعمل مقدّرة، كما تعمل ظاهرة.

*وأمّا **الأسماء**: فتعمل عند البصريين جامدة كعملها في الحال، وفي التّمييز في مثل قولهم: لي عشرون دينارا وهو جاري بيت بيت.

وتعمل مشتقة كعمل أسماء الفاعلين والمفعولين، الصفات المشبهة، وأفعل التّفضيل، وأمثلة المبالغة، وهي تعمل عند الكوفيين أيضا جامدة في مثل تلك المواضع، وفي المبتدأ والخبر، والكوفيون يرفعون كل واحد منها بالآخر، فالمبتدأ وهو اسم جامد يرفع الخب، والخبر قد يكون جامدًا يرفع المبتدأ.

وتعمل الأسماء المشتقة أيضا عندهم، ولكن بعد إخراج نوعين من الأسماء المشتقة العاملة عند البصريين وهي: اسم الفاعل، وصيغ المبالغة.

وأما اسم الفاعل فهو فعل دائم عندهم، وأما صيغ المبالغة فلا يعمل شيء منها عندهم، وإذ جاء بعدها منصوب فهو معمول لفعل مقدر.

*وأمّا **الأدوات**: فهي أدوات الجر أو الخفض، وأدوات النصب، وأدوات الجزم.

أ. أدوات الجر: يتفق الفريقان على اختصاصها بالأسماء، ويختلفان في التّطبيق، يُدخل فريق منها أدوات يُخرجها الفريق الآخر منها.

فقد اعتبر البصريون "حتى" من حروف الجر، بينما اعتبر الكوفيون "حتى" أداة نصب تدخل على الأفعال وإذا دخلت على الأسماء، وانجرت الأسماء بعدها، فالجر يكون بـ "إلى" المضمرة عند الكسائي أو بـ "حتى" على أنّها نائبة عن "إلى" عند الفراء.

واعتبر البصريون " لولا" من حروف الجر إن وليها ضمير جرّ نحو: لولاي، لولاك، لولاه، أمّا إذا وليها ضمير رفع منفصل فهو في محل رفع مبتدأ، وأما الكوفيون فيرون أنّ الضمير بعدها دائما في محل رفع.

ب. أدوات النصب: منها ما يدخل على الأفعال، ومنها ما يدخل على الأسماء، فالتي تدخل على الفعل عند البصريين: أن، لن، كي، إذن.

وعند الكوفيين أن الفعل ينصب بأدوات كثيرة، هذه الأدوات الأربع وجميع الأدوات التي أضمر البصريون "أن" بعدها مثل: حتى ولام التعليل. وأدوات النّصب التي تدخل على الأسماء هي "أن" وأخواتها.

وأمّا التي تدخل على الأسماء فالبصريون يعملونها في المبتدأ والخبر جميعا، ينصبون بها الأول ويرفعون بها الثاني، وأما الكوفيون فيعملونها في الأول فقط نصبا وعندهم أنّ الخبر مرفوع بما ارتفع به حيث كان خبر المبتدأ.

ج. أدوات الجزم: وتختص بالدخول على الأفعال، وهي عند البصريين نوعان:

نوع يجزم فعلا واحدا، ووع يجزم فعلين، فأمّا الكوفيون فلم يمنحوا الأدوات الجازمة عملين وعندهم أنّ الفعل الثاني المجزوم في نحو قول:(إن تقُمْ أقُمْ)، وقوله تعالى:﴿ وأيْنَمَا تَكُونوا يُدْرِكْكُم المَوْت ﴾وغيرها إنّما جزم بالجواز.

وأضاف الكوفيون إلى الأدوات التي تجزم فعلا واحدا "أن" وأضافوا إلى أدوات الشّرط الجازمة (لفعلين). كيفما، ومهمن.

2-العوامل المعنوية: ليس في النّحو البصري من العوامل المعنوية إلاّ عاملان، كان لها أثر في موضوعين اثنين عندهما.

أحدهما: المبتدأ فرافعه عندهم عامل معنوي هو الابتداء.

ثانيهما: الفعل المضارع فقد ذهبوا إلى أنّ رافعه عامل معنوي أيضا، هو وقوعه موقع الاسم.

وأمّا النّحو الكوفي، فتتعدد فيه العوامل المعنوية ولها آثار في موضوعات نحوية كثيرة، منها:

أ/الإسناد: وهو عامل رفع الفاعل عند هشام بن معاوية الضرير.

ب/الفاعلية: وهي عند خلف الأحمر عامل رفع الفاعل كذلكم، والظّاهر أنّ خلف وهشام متفقان إن اختلفت مصطلحاتهما، فليس الفاعلية إلاّ تلبس الفاعل بالفعل أو إسناد الفعل إلى الفاعل.

ج/المفعولية: وهي عامل النّصب في المفعول به.

د/التّجرد عن النّاصب والجازم: ومجال عمله الفعل المضارع، والكوفيون يقولون إنّ الفعل المضارع يرفع إذا لم يدخله النّواصب والجوازم.

المحاضرة 11:

المدرسة الأندلسية والمغربية 1.

المحاضرة الحادية عشر: المدرسة الأندلسية والمغربية 1.

1-رحلة النحو نحو الأندلس:

امتدّت الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين من بعدهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، حتى بلغت أقاصي القارة الأوروبية، وظفر المسلمون بفتح بلاد الأندلس، فكان أول احتلال "طارق بن زياد" لأرض أندلسية سنة 32 للهجرة واستتبعت بعدها الفتوحات، وتتابعت الولاة.

ومنذ أن وطئت أقدام المسلمين الفاتحين بلاد الأندلس واستوطنوها، سعوا إلى تعميرها وتعريبها لغة ودينا وعمرانا، ولاسيما أنّه ارتحلت إليها عديد القبائل العربية زيادة على الجند الشّاميين، فغمروها بعاداتهم وتقاليدهم ما حُسن منها وما سيء.

يقول أحد الدّارسين: «لما استتمّ الفتح، وعصفت ريح الإسلام صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همّتهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوهم أعقابهم، وهم بدء تاريخ الأدب فيها، فكان منهم القبائل المختلفة من العدنانية والقحطانية، ولم يتركوا في الأندلس عاداتهم المشرقية من الغزو والحروب، فطرأت بذلك الفتن بين الشّاميين والبلديين والبربر والعرب من المضرية واليمانية...». [1]

ومع ذلك عمّر المسلمون الأندلس وبقيت بصمتهم فيها خالدة إلى يومنا هذا فشهد عليها مدن قرطبة، وإشبيلية، وقصر الحمراء وغيرها.

وقد اضطر المسلمون المستوطنون إلى الاختلاط بسكانها الأصليين وهم على غير لغتهم ودينهم، بل إنّهم تزوّجوا فيما بينهم، فكان من أولى أولويات الدولة ترسيخ الإسلام دينا، والعربية لغة، فكانت الحاجة إلى تعليم النّحو وتعلّمه بارزة، بخاصة بعد أن استقرت الخلافة الأموية بالأندلس على عهد الخليفة عبد الرحمن الداخل سنة (138هـ) بعد أن غلبهم العباسيون في الشام واستولوا على الخلافة، وقد امتدت الخلافة الأموية بالأندلس حتى (422هـ).

ولعل أسباب الاهتمام المبكر باللّغة العربية بعامة والنّحو بخاصة تعود إلى: [2]

*الحاجة إلى تعليم الناشئة من الأندلسيين وغيرهم من أسلم واصطنع لغة القرآن لغته.

*اعتبار اللّغة العربية لغة الدين، وقواعدها وسيلة لفهم نصوص القرآن والأحاديث وضبط الألسن.

---

(1) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط6، 2001، 258/3.

(2) الأعلم الشنتمري: النّكت في تفسير كتاب سيبويه، وتبيين الخفي من لفظه وشرح أبياته وغريبه، دراسة وتحقيق: رشيد بلحبيب، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1999، 44/1، (دراسة المحقق).

*حاجة الدّولة إلى علماء وكتاب متخصّصين لصياغة الخُطب وتنشيط الحركة العلمية، والحفاظ على لغة رسمية للدولة.

*شعور الأندلسيين بأنّهم لا يقلّون عن غيرهم من إخوانهم بالمشرق في درجة الكفاءة، والالتحاق بالركب – ركب النّحاة–إن لم يكن في مقدرتهم التّفوق.

وأمّا أولية النّحو في الأندلس فارتبطت بحلقات التّدريس؛ ومدارسة الأشعار والنّصوص «وإنّما كان ذلك مقصورًا على الطّارئين على الجزيرة، وفي قليل من أهل البلاد». (1)

يقول أحد الدّارسين واصفًا إيّاهم: «لا نكاد نمضي في عصر بني أمية بالأندلس (138هـ 422هـ) حتى تنشأ طبقة كبيرة من المؤدبين الذين كانوا يعلّمون الشّباب في قرطبة وغيرها من الحواضر الأندلسية مبادئ العربية عن طريق مدارسة النّصوص والأشعار، يدفعهم إلى ذلك حفاظهم على القرآن وسلامة لغته وتلاوته، وبذلك كان أكثرهم من قراء الذكر الحكيم، وكان كثير منهم يرحلون إلى المشرق فيتلقون هذه القراءات، ويعودون إلى موطنهم فيرسمونها للناس بجميع شاراتها كما يرسمون لهم العربية بمقوماتها اللّغوية». (2)

ولكن درايتهم بالنّحو لم تكن واسعة «فكانوا يعانون إقامة الصّناعة في تلقين تلاميذهم العوامل، وما شاكلها، وتقريب المعاني لهم في ذلك؛ إذ لم يأخذوا بأنفسهم بدقائق العربية وغوامضها والاعتلال لمسائلها، ثمّ كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ولا تصريف، ولا أبنية، ولا يجيدون في شيء منها». (3)

ولعل من أشهر من هؤلاء المؤدبين أبو موسى الهواريّ، الذي عدّه الزّبيدي: «أولّ من جمع الفقه في الدّين، وعلم العرب بالأندلس». (4) ويعاصره الغازي بن قيس (ت 199هـ) الذي احترف تأديب الناشئة بقرطبة.

2–النّحو الكوفي في الأندلس:

كانت أولية النّحو في الأندلس كوفية، ولعلّ الّذي شقّ له الطّريق إليها هو "جودي بن عثمان المؤرُوريّ (198هـ)، والذي عدّ أول نحاة الأندلس بالمعنى الدّقيق لكلمة نحويّ.

(1) مصطفى صادق الرفاعي، تاريخ آداب العرب، 261/3

(2) شوقي ضيف: المدارس النّحوية، دار المعرف، القاهرة، مصر، ط8، 1999، ص288.

(3) الزبيدي: طبقات اللّغويين والنّحويين، ص311.

(4) مص. ن، ص253.

وكان قد رحل إلى المشرق، فلقي الكسائي والفرّاء وغيرهما. وهو أول من أدخل كتاب الكسائي، وله تأليف في النّحو اسمه "منبه الحجارة". [1]

ورسخت قدم النّحو الكوفي على يد "مُفرج بن مالك النّحوي" المعروف بالبغل؛ الذي شرح أحد كتب الكسائي. [2]

وبقي النّحو الكوفي هو الغالب على الأندلس حتى القرن الثّالث للهجرة، وقد أورد الزبيدي في كتابه خمس طبقات متعاقبة من النّحاة الأندلسيين [3] -قبل أن يظهر من نُسِب إليه حمل "الكتاب"-والظّاهر أنّهم لم ينزحوا عن النّحو الكوفي.

ويعلل أحد الدّارسين تأصل النّحو الكوفي في الأندلس، والمغرب الإسلامي عموما إلى تعلق المغاربة بما ترمز له الكوفة من ولاء لعلي بن أبي طالب.

3-كتاب سيبويه والنّحو البصري في الأندلس:

انصّبت عناية الأندلسيين على النّحو الكوفي مدّة طويلة من الزّمن في حين تأخرت عنايتهم بالنّحو البصري عموما، وكتاب سيبويه خصوصا، حتى أواخر ق3هـ؛ حيث يظهر نحوي اشتهر بحفظ كتاب سيبويه وهو" محمد بن موسى بن هاشم بن زيد" الملقب بـ "الأقشتيق" أو "الأقُشنيق" أو "الأفشتين". [4]

وكان قد "رحل إلى المشرق، فلقي أبا جعفر الدينوري، واستنسخ كتاب سيبويه من نسخته، وأخذه عنه رواية، وأخذه عن المازني"، وعاد يقرئه بقرطبة لطلابه، ومن ثمّة أخذ غير نحوي في مدارسة الكتاب مثل أحمد بن يوسف حجّاج(336هـ)، وكان يضع دائما كتاب سيبويه بين يديه ولا يبني عن مطالعته في حال فراغه وشغله وصحته وسقمه. [5]

وقد افتتح عصر الاهتمام البالغ بكتاب سيبويه في الأندلس على عهد محمد بن يحي الرّباحي الجياني (353هـ)؛ فقد «رحل إلى المشرق، فلقي أبا جعفر النّحاس، فحمل عنه كتاب سيبويه رواية، ولازم علاّن

---

(1) ينظر: الزبيدي: طبقات اللّغويين والنحويين، ص256.

(2) ينظر: مص. ن، ص273. و: محمد المختار ولد أبّاه: تاريخ النّحو العربي في المشرق والمغرب، ص223.

(3) ينظر تراجمهم عند الزبيدي: طبقات اللّغويين والنّحويين، ص257، 281.

(4) اختلف في لقبه، ذكر الزبيدي: الأقشتيق، ينظر: ص 281، وذكره شوقي ضيف: الأفشنيق، ينظر: المدارس النّحوية، ص289، وذكر بعضهم: الأفشتيق، ينظر: النّكت في تفسير كتاب سيبويه، 45/1 (دراسة المحقق)، وتاريخ النّحو العربي بالمشرق والمغرب، وأورد الرّافعي لقبا آخر: الأُفْشين، ينظر: تاريخ آداب العرب 315/3.

(5) ينظر: الزبيدي: طبقات اللّغويين والنحويين، ص 282و: شوقي ضيف، المدارس النّحوية، ص289.

وناظره...وقدم قرطبة فلزم بها التأديب في داره». [1] وأفرغ وقته لقراءة الكتاب على طلابه شارحا له ومفسرا، تسعفه دقة نظره ومنطقه وقدرته على الاستنباط وتحليل العبارات والغوص على العلل. ولم يكن يكتفي بقراءة الكتاب لطلابه؛ فقد كان يعقد لهم مجلسا في كل جمعة للمناظرة في مسائله، ومنذ زمنه انصرفت الهمم إلى استظهار الكتاب والعناية به.

ومكانة الرّباحي في تاريخ النّحو بالأندلس حفظها له الزّبيدي قائلا: «لم يكن عند مؤدبي العربية ولا عند غيرهم ممّن عني بالنّحو كبير علم، حتى ورد محمد بن يحي عليهم، حتى نهج لهم سبيل النظر، وأعلمهم بما عليه أهلُ هذا الشّأن في المشرق، من استقصاء الفن بوجوهه، واستفائه على حدوده، وإنّهم بذلك استحقوا اسم الرّياسة». [2]

وخلف الرباحي والقالي جيل من تلاميذهما مضى يعكف عن مدارسة كتاب سيبويه، وكتب غيره من البصريين والكوفيين.

4-عناية الأندلسيين بكتاب سيبويه:

لم تكن عناية الأندلسيين بالكتاب بأقل من عناية المشرقين به برغم تأخر وصوله إليهم؛ يدلّ على ذلك ما حفظ عن شغفهم به؛ فقد روي أنّ أبا عبد الله حمدون بن إسماعيل المعروف بالنعجة يحفظ الكتاب كما يحفظ القرآن. وعكف عبد الملك بن سراج أبو مروان النّحوي(489هـ) على كتاب سيبويه ثمانية عشر عاما لا يعرف سواه. وكان عبد اللّه بن عيسى بن وليد يختم كتاب سيبويه كل خمسة عشر يومًا.

ثمّ إن الأندلسيين اتّخذوا الكتاب مادّة بنوا عليها عديد مؤلفاتهم بين شرح كامل للكتاب، وشرح لشواهده، وتعليقات عليه، وقد أشاد أبو حيّان الأندلسي بعناية أهل بلده بالكتاب فقال: «وممّا برعوا فيه علم الكتاب انفردوا بإقرائه منذ أعصار دون غيرهم من ذوي الألباب أثاروا كنوزه، وفكوا رموزه، قرّبوا قاصيه، وراضوا عاصيه، وفتحوا مغلقه، وأوضحوا مشكله». [3]

وممّن عُنوا بكتاب سيبويه من الأندلسيين نذكر: [4]

---

(1) ينظر: شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص: 290.

(2) ينظر: طبقات اللغويين والنحويين، ص: 311.

(3) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 100/1.

(4) ينظر: الكتاب،37/1-43 (مقدمة المحقق).

و: الرافعي: تاريخ آداب العرب، 315،316/3.

*الأعلم الشتمري(467هـ) له شرح على الكتاب عنوانه: النّكت في تفسير كتاب سيبويه وشرح أبياته، وغريبه، وله شرح لأبياته يسمى "تحصيل عين الذهب".

*ولأبي بكر الخشني الجيّاني(544هـ) شرح على الكتاب، وكان النّاس يرحلون إليه لتقدمه في الكتاب، كما شرحه ابن الباذش(ت528هـ) (وهو أبو الحسن علي بن أحمد الغرناطي).

* ولابن خروف (745هـ) كذلك شرح عليه وهو مطبوع بعنوان "تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب".

*كما شرحه الصفار (وهو أبو الفضل قاسم بن علي البطليوسي ت 630هـ).

* ويذكر أنّ الشّلوبين الكبير (أبو علي عمر بن محمد الإشبيلي ت645هـ) صنف تعليقًا على الكتاب.

*كما شرحه ابن الحاج (وهو أبو العباس أحمد بن محمد الإشبيلي ت651هـ).

* والخفاف (وهو أبو بكر بن يحي الجذامي المالقي، ت657هـ).

* وابن الضائع (أبو الحسن بن محمد الكتامي الإشبيلي ت677هـ).

*وتعليقة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي(708هـ).

* وللزبيدي "الاستدراك على سيبويه في كتابة الأبنية والزيادات"

* ولابن الطراوة(ت528هـ)"المقدمات على كتاب سيبويه"

* وللشوبين الصغير تلميذ ابن عصفور (ت حوالي 660هـ): شرح لشواهده، ولعلّ مصنفات الأندلسيين على الكتاب أكثر من أن تحصر في هذه الصفحة.

المحاضرة 12:

المدرسة النحوية الأندلسية والمغربية 2.

المحاضرة الثانية عشر: المدرسة النحوية الأندلسية والمغربية 2.

1-النحو الأندلسي في عصر المماليك وما بعده:

منذ عصر ملوك الطوائف أخذت دراسة النحو تزدهر في الأندلس، فإذا نحاتها يخالطون جميع النحاة السابقين من بصريين وكوفيين وبغداديين، وإذا هم ينتهجون نهج الأخيرين في الاختيار من آراء نحاة الكوفة والبصرة، ويضيفون إلى ذلك اختيارات من آراء البغداديين، وبخاصة أبا علي الفارسي وابن جني، وساروا في اتجاهاته من كثرة التعليلات والنفوذ إلى بعض الآراء الجديدة، وهم بذلك يتيحون لمنهج البغداديين ضروبًا من الخصب والنماء. (1)

ولعل هذا الاتجاه بدأ مع "ابن سيده"؛ إذ انغمس نحاة الأندلس في النحو البغدادي بجانب انغماسهم في النحو البصري والكوفي، وكان ذلك إيذانًا بأن تتضح شخصيتهم في النحو ودراساته.

ولعلّ أول من نهج لنحاة الأندلس في قوة الاتجاه السابق ذكره هو: "**الأعلم الشنتمري**" (ت 476هـ)؛ الذي كان يختار لنفسه من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين، كما شرح كتاب "الجمل للزجاجي"، وروى كتاب "سيبويه" عن ابن الإفليلي، وأقرأه لطلابه، مُبصِّرًا لهم بدقائقه، مُذلِّلاً صعابه، ومُحِّللاً مُشكلَه تحليلاً واسعًا، واجتمع الطلاب من حوله ومن بعده على هدا الكتاب، حتى اشتهر في العالم العربي أن بيئة عربية لا تبلغ بيئة الأندلس في تحرير نصه، وكشف غوامضه.

ومن أشهر النحاة في هذا العصر: (2) "**عبد الله بن طلحة**" (ت 518هـ) ارتحل إلى مكة، وأخذ عنه "الزمخشري" -البغدادي المذهب-الذي ارتحل بدوره من خوارزم إلى مكة لقراءة كتاب سيبويه عليه.

وعاصر ابن طلحة ثلاثة نحاة هم: **ابن السيد البطليوسي النحوي** (ت 521هـ)، **وابن الباذش** (ت528هـ)، **وابن الطراوة** (ت528هـ)، وكلهم بلغ غاية في النحو.

ويكثر في عصر الموحدين النحاة الذين عُنُوا بشرح كتاب سيبويه وإقرائه للطلاب وفكّ مشكلاته، مثل **ابن الرَّمَّاك** (ت541هـ) وهو تلميذ ابن الطراوة، و**الأقليشي** (ت556هـ) تلميذ ابن السيد، **وجابر الإشبيلي** (ت596هـ) تلميذ ابن الرّمّاك، وتلميذه: **أبو بكر محمد بن طلحة** (ت618هـ).

وأَنْبَهُ من هؤلاء: **أبو بكر بن طاهر** (ت580هـ)، **وأبو القاسم السُهيلي** (ت581هـ)، **والجزُولي** (ت607هـ)، **وابن خروف** (ت609هـ).

---

(1) ينظر: شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص: 290، 291.

(2) ينظر تراجمهم عند: مر.ن، ص: 288-292.

ولا نمضي في القرن السابع الهجري طويلاً حتى يظهر: **عمر بن محمد الشلوبين** (ت645هـ)، **وابن هشام الخضراوي** (ت646هـ)، **وابن عصفور الإشبيلي** (ت663هـ)، **وابن الحاج** (ت651هـ)، **وابن الضائع** (ت680هـ)، **وابن أبي الربيع** (ت688هـ).

ولعلّ من أشهر النحاة الأندلسيين الذين ذاع صيتهم في العالم العربي، واشتهروا بفكرهم الموسوعي، أو التجديدي، ثلاثة هم:

أ-ابن مضاء القرطبي (ت592هـ): [1]

هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان بن مضاء القرطبي، من أهل قرطبة، وإليها يُنسب. كان منقطعًا إلى العلم والعلماء. قرأ كتاب سيبويه على ابن الرماك في إشبيلية، وهاجر إلى "سبتة" في طلب الحديث عن القاضي "عيّاض" حتى صار عالمًا بالرواية فيه، وكان مقرئًا مجدّدًا، ومحدّثًا مكثر السماع، عارفًا بالأصول والكلام والطب والهندسة، ثاقب الذهن، متّقد الذكاء.

وكان يميل إلى دعوة الموحدين ويذهب مذهبهم في الأخذ بالمذهب الظاهري في الفقه، وهو ما انعكس في قناعاته النحوية، وعدّ رائد المذهب الظاهري في النحو.

اشتهر بكتاب "الرّد على النحاة" الذي دعا فيه إلى إلغاء القياس، والجري خلف العلل الثواني، والثوالث، والأخذ بظاهر النصوص وترك التأويل والتّمحل، متأثّرًا في ذلك بمذهبه الفقهي وهو المذهب الظاهري الذي يقوم على نفس هذه المبادئ في الفقه. كما رفض التمارين غير العملية ممّا عرضنا له عند سيبويه، والخليل.

ب-ابن مالك الأندلسي (600-672هـ):[2]

هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجيّاني الأندلسي، فالطّائيّ نسبة إلى قبيلة طيء التي ينسب إليها، والجيّاني نسبة إلى مدينة جيّان مسقط رأسه، والأندلسي نسبة إلى الأندلس.

ولد بحسب أغلب المصادر سنة 600 للهجرة، واستقرّ في الأندلس فترة شبابه، وسلك سبيل التحصيل العلمي في مسقط رأسه، فأكبّ على علوم اللغة، كما درس القراءات، واستكمل تحصيله في بلاد المشرق، أين سطع نجمه ثمة، واشتهر من بين نحاة عصره حتى يوم الناس هذا. وهو صاحب "الألفية" المشهورة في النحو.

---

(1) ينظر ترجمته مفصلة: ابن مضاء القرطبي: الرد على النحاة، ص: 3، وما بعدها [مقدمة المحقق].

(2) ينظر ترجمته مفصلة عند: المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1968، 222/2، وما بعدها.

و: السيوطي: بغية الوعاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي، (د.ب)، ط1، 1964، 130/1-137

ولعلّ ما يميّز فكر هذا الرّجل النابغة تجديده في النحو العربي مادة، ومنهجًا؛ حيث نلمح ذلك في:

أ –اعتداده بالقراءات الشاذة.

ب–استشهاده بلغات لم يسبق للنحاة الأخذ بها ممثل لغات لَخْم، وقُضَاعة.

ج –تضييقه معنى الضرورة الشعرية.

د – اتخاذ الحديث النبوي الشريف مصدرًا أساسًا في استنباط الأحكام النحوية، وهو بكل هذا وسَّع في المادة اللغوية، ما يعني توسيعًا في الأحكام النحوية؛ إذ أقرّ أحكامًا لم تكن معروفة عند جمهور النحاة السابقين له، أو أنهم اعتبروها من قبيل الشاذ، أو خصوها بالضرورة، فجعلها جائزة في اختيار الكلام.

ج–أبو حيان الأندلسي [1] (654 هـ–745هـ):

هو إمام النحاة أثير الدين أبو حيّان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الغرناطي. كان مولده في العشر الأخير من شوال سنة أربع وخمسين وستمائة للهجرة (654 هـ/ 1256م)، وقيل سنة اثنتين وخمسين وستمائة.

تلقّى علومه الأولى في موطنه غرناطة على أيدي شيوخها، وأغلب الظن أنه ابتدأ بدراسة القرآن، والحديث، وعلوم اللغة والعربية.

تلمذ لابن الزبير وابن الضائع في النحو، وأكبّ على التفسير والحديث والقراءات والتاريخ حتى أتقن ذلك كلّه، وبَرَعَ فيه.

رحل من الأندلس شابًا، وألقى بعصا ترحاله بالقاهرة سنة 678هـ، ولزم ابن النحاس تلميذ ابن مالك، وأخذ عنه كتبه.

لعلّ أشهر ما أُثِر عنه أنه هو الذي فتح باب النقاش في مسألة الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف. وكان من أشد المعارضين لاتخاذه أصلاً في استنباط الأحكام النحوية، ومن ثمَّ رفض ما جاء من أحكام استنبطت بناءً على لغة الحديث، ولاسيما في شرحه المسمى "التذييل والتكميل في شرح التسهيل لابن مالك"؛ حيث وقف في هذا الكتاب نِدًّا مخالفًا لابن مالك في أكثر ما يذهب إليه من آراء، ويخالفه مخالفة صريحة، ويرميه بنعوت تنقص من قيمته بالرغم من عنايته بمؤلفات ابن مالك عناية فائقة حتى إنه كان يعدّ كتاب "التسهيل" لابن مالك في مكانة كتاب سيبويه في زمانه.

---

(1) ينظر ترجمته مفصلة عند: المقري: نفح الطيب، 2/535-584.

و: السيوطي: بغية الوعاة، 1/180-185.

من مؤلفاته: "البحر المحيط" في تفسير القرآن الكريم، منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك، ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب (وهو اختصار لكتاب التذييل والتكميل)، ومؤلفات أخرى كثيرة جدًّا جَلّها مطبوع، ومتداول.

ولعلّ أهم ما ميّز فكره النحوي ما يأتي:

-التزامه منهج المتقدمين من النحاة ورفضه ملامح التجديد التي أبداها علماء عصره.

-اعتداده بالقراءات على تعدد مراتبها، وإنكاره على النحويين تخطئتهم لبعضها.

- رفضه المطلق للاستشهاد بالحديث النبوي الشريف في استنباط الأحكام النحوية.

-رفضه كثرة التعليلات النحوية، لا سيما العلل القياسية والجدلية، وكذا رفضه للتمارين غير العملية، وهو في ذلك يشابه مذهب ابن مضاء.

2-خصائص المذهب الأندلسي في النحو العربي:

استطاع المذهب الأندلسي أن يكوّن لنفسه خصائص وسمات ميّزته من نحو السابقين واللاحقين له في المشرق والمغرب، ويمكن إجمال هاته الخصائص فيما يأتي: [1]

-عدم تقيّد الأندلسيين بمذهب نحوي محدّد؛ فلم يكن نحوهم بصريًّا صرفًا ولا كوفيًّا صرفًا، وبذلك يكونون قد خرجوا عن التقليد، ووضعوا معالم طريق جديدة في دراسة النحو وتيسيره، كما كانوا متحررين من قيود العصبية، مستقلين مجددين، معتدين بعقولهم ومقدرتهم.

-توزّع مصادر السماع عندهم بين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب شعرًا ونثرًا، ولاسيما الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف الذي ظهر تحديدًا مع نحاة الأندلس لاسيما ابن خروف وابن مالك.

- نبذهم كثرة التعليل حينما وصفوه بالهذيان في القول والخروج عن منهج التعلل، ودعوا إلى إلغاء العلل الثواني والثوالث والإبقاء على العلل الأوّل أي العلل التعليمية.
- اتّجاههم إلى تيسير النحو من خلال وضع المتون النحوية، وشرحهم لكتب النحو القديم منها والمعاصر.

---

(1) ينظر: عبد القادر رحيم الهيتي: خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط2، 1993، ص: 141، ما بعدها.

المحاضرة 13:

الاختلاف النحوي في المنظومات:

المحاضرة الثالثة عشر: الاختلاف النحوي في المنظومات:

أولا: مفهوم المنظومات:

أ/ لغة:

"المنظومة" اسم مفعول من الفعل "نَظَم"، ومصدره "النَّظْم". جاء في مختار الصحاح قول صاحبه: «نَظَمَ اللُّؤلُؤ: جمعه في السلك، وبابه ضَرَب، ونَظَّمه تنظيمًا: مثله، ومنه: نَظَم الشِّعرَ، ونَظَّمَه...». (1)

ب/ اصطلاحًا:

وأمَّا المنظومات في علم النحو فمن تعريفاتها أنّها: «نوع من الشعر التعليمي، وهو النظم الذي يهدف به ناظمه إلى تعليم الناس...فقد فطن مصنفو العلوم وخاصة النحو إلى أنه بالإمكان توظيف نظم الشعر وإيقاعاته في صياغة منظومات نحوية تسهم في تسهيل تعلمه، وتيّسر حفظ قواعده». (2)

وما يستنتج من التعريفين اللغوي والاصطلاحي أن المنظومات النحوية هي متون نحوية، يؤلّفها بعض علماء النحو شعرًا، بغرض تسهيل حفظ قواعده وتيسير أبوابه على الطلاب، وهي تندرج ضمن باب الشعر التعليمي.

ثانيًا: نشأة فن المنظومات، ودواعي ظهورها.

ميّز العلماء القدامى بين النحو وتعليم النحو، ولجأوا إلى البحث عن وسائل لتسهيل النحو وتيسير تعليمه، فاهتدوا إلى المنظومات.

وتندرج المنظومات النحوية ضمن غرض الشعر التعليمي الذي يهدف به ناظمه إلى تعليم الناس وتزويدهم بالحقائق والمعلومات المتعلقة بحياتهم، مصدره العقل ومنهجه الموضوعية، فهو يختلف عن الشعر؛ لأن الشعر مصدره العاطفة والخيال.

وأشارت بعض المصادر أن هذا النوع من الشعر لم يظهر إلّا في القرن الثاني الهجري، بينما ذهبت مصادر أخرى إلى أنه نشأ نتيجة اتصال العرب بالثقافة الوافدة عليهم، إمّا الهندية أو اليونانية. (3)

وازدهر الشعر التعليمي في العصر العباسي فنظمت به الكثير من الفنون والعلوم؛ نظرا لازدهار العلم واتساع المعارف، وازدياد الإقبال على العلم مما جعل المتعلمين يشعرون بحاجتهم إلى النظم، ليسهل عليهم

---

(1) أبو بكر الرازي: مختار الصحاح، تح: سعيد محمود عقيل، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2001، ص: 673، 674، مادة (ن ظ م).

(2) حسان عبد الله الغنيمان: المنظومات النحوية وأثرها في تعليم النحو، ص: 14.

(3) ينظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام، 1/ 245.

حفظ المعلومات وتداولها ونقلها، لكون النظم وسيلة سهلة الحفظ والرواية، وكانت جهود العلماء في هذا المجال كبيرة؛ اذ فاقت المنظومات النحوية حتى القرن العاشر 140 منظومة.

ومن خصائص هذا النوع من الشعر أنه مبني على الأوزان الشعرية، فله أحكام الشعر، إلا أنه لا يصح مقارنته من ناحية الجودة والجمال الفني بالشعر لاختلاف الدوافع الخاصة بكل منهما، ولاختلاف المصدر والمجال واللغة، لهذا فجودة المنظومات تكمن في كونها وسيلة تعليمية وفي قيمتها العلمية، تتسم بالاختصار وإيجاز العبارة، والتلميح لما تتطلبه الأوزان الشعرية، وبهذا فهي تختلف عن المتن العلمي المنثور.

وأمّا المنظومات النحوية فقد ظهرت في عصور متأخرة عن عصر نشأة النحو، لما تضاءل عدد النحاة، وكثُر اللّحن، وضعفت همّة الطّلاب على استيعاب أبواب النحو وقواعده، فهبّت جماعة من النحاة إلى نظم هذه القواعد في قالب شعري يسهّل للطلاب تعلّم النحو؛ لما كان الشعر أيسر في الحفظ من النثر.

يقول ابن خلدون: «...وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع من نقل كما نقله ابن مالك في كتاب التسهيل...ولربّما نظموا ذلك نظمًا، مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى».

ثالثًا: أشهر المنظومات النحوية.

المنظومات النحوية كثيرة جدًّا؛ بحيث لا يمكن حصرها بتعداد ما، كما أنه من الصعب تحديد أولى المنظومات؛ لأنّ الآراء في ذلك متنوعة ومتضاربة.

غير أننا سنحاول الوقوف عند أشهرها على وجه الترتيب الزمني الخاضع لتواريخ وفاة أصحابها.

1-ملحة الإعراب في علم النحو للحريري (516هـ):

***ترجمته:**

هو أبو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان أبو محمد الحريري البصري، ولد بالبصرة سنة 446هـ، وتوفي سنة 516هـ. ولُقّب بالحريري لاشتغاله بعمل الحرير وبيعه.

من مؤلفاته: ديوان الشعر، وملحة الإعراب في علم النحو.

والمشهور عند الدارسين أن هذه المنظومة هي أول ما أُلِّف في هذا النوع من الشعر التعليمي.

***منهج المنظومة، وأبوابها:**

نظم الحريري ملحته على بحر الرجز، وهو سهل النظم، والأبيات على هذا النحو تسمى "أرجوزة". جاءت الملحة في ثلاثمائة وثمانية وسبعين بيتًا، يضاف إليها أبيات الخاتمة وعددها ثلاثة عشر بيتًا، ليصبح إجمالي الأبيات أربعمئة بيت وبيتًا واحدًا.

ومن الأبواب التي تطرقت إليها المنظومة: باب حدّ الكلام، باب الاسم، باب الفعل، باب الحرف، باب المعرفة والنكرة، باب قسمة الأفعال، باب فعل الأمر، باب الفعل المضارع، باب الإعراب، ثم ختم المنظومة بباب الشرط وباب المبنيات.

ويظهر من الملحة أن الناظم يتمذهب مذهب البصريين، فهو يختار مصطلحاتهم، ويتبنى أحكامهم المخالفة للمذهب البصري، من مثل اختياره أن المصدر أصل والفعل فرع عنه.

أسقط الحريري من ملحته كثيرًا من أبواب النحو، ومنها: باب المبتدأ والخبر وما يتبعهما من أبواب من نحو: مسوّغات الابتداء بالنكرة، والتقديم والتأخير، كما أسقط باب التنازع.

2-الدّرّة الألفية لابن معطي: [1]

صاحبها هو زين الدين أبو زكريا يحي بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي الجزائري، ولد سنة 564هـ، وتوفي سنة 629هـ.

تعدّ "الدرة الألفية في علم العربية من أشهر مؤلفات ابن معطي لأنها أول منظومة نحوية في ألف بيت.

جاءت الدرة منظومة على بحرين هما "الرجز" و"السريع"، بلغت عدد أبياتها ألفًا وواحدًا وعشرين بيتًا.

بدأها صاحبها بحمد الله، والصلاة والسلام على نبيه (عليه الصلاة والسلام) وعلى آله وصحبه، ثم عرض لباب الكلام والكلم، فعلامات الاسم والفعل والحرف، ختم ببابي الإبدال والإدغام، وباب الضرورات الشعرية.

ويمكن أن نختصر منهج ناظمها في أربعة نقاط: آراؤه الخاصة به، وموافقة البصريين، وموافقة الكوفيين، وموافقة البغداديين.

وقد حظيت المنظومة باهتمام كبير خلال القرنين السابع والثامن الهجريين؛ إذ عني دارسون كثيرون بشرحها، منهم:

ابن الخباز(627هـ) وشرحه موسوم بـ"الغرة المخفية في شرح الدرة الألفية"، وأبو بكر الشريشي(685هـ) وشرحه معنون بـ التعليقات الوفية في شرح الدرة الأفية، وعز الدين أبو الفضل عبد العزيز بن زيد الموصلي(696هـ)، ومحمود بن يعقوب الدمشقي (718هـ)، وعبد المطلب المرتضى الخزرجي (735هـ)، وابن الوردي (749هـ)، ومحمد بن جابر الأعمى (781هـ).

3-ألفية ابن مالك:(600-672هـ).

---

(1) ينظر: عبد القادر رحيم الهيتي: خصائص مذهب الأندلس النحوي، ص: 210، 211

وأمّا الألفية في النحو، وتعرف بالخلاصة: فهي رجز يقع في ألف بيت، وهي اختصار لـ "الكافية الشافية" الواقعة في ثلاثة آلاف بيت، نظم فيها ابن مالك أحكام النحو ليسهل حفظها واستيعابها، وقد نال بها صاحبها شهرة على نحو ما نالت واشتُهرت به، ولا أدلّ على ذيوعها، وشهرتها من أن العناية بها دامت منذ القرن السابع للهجرة إلى العصر الحديث؛ حيث لا يزال العلماء يعنون بشرحها. ويُذكر أن المؤلفات التي اتخذت "الألفية " موضوعًا لها تربو عن 285 مؤلّفًا ما بين شرح وتهذيب وتعليق وتحشية وتنكيت وتقييد ومعارضة واستدراك، واعتراض واختصار وتشطير وإعراب وشرح لشواهد شروحها. [1]

ولنا أن نشير إلى بعض المنظومات النحوية أخرى، منها:

منظومة لامية الأفعال لابن مالك، منظومة مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام (761هـ)، منظومة "لامية في النحو" لزين الدين الآثاري (828هـ)، نظم الآجرومية لشرف الدين يحي العمريطي (989هـ).

(1) ينظر: حسين بركات: جهود النحويين في خدمة ألفية ابن مالك " دراسة ببيلوغرافية للحركة العلمية التي قامت عليها"، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مصر، ماي 2002، المجلد 46، 1/ 65، 67.

المحاضرة 14:

الاختلافات النحوية في المتون.

المحاضرة الرابعة عشر: الاختلافات النحوية في المتون.

أولا: تعريف المتون:

أ/ لغة:

يقال في اللغة: "متُنَ الشَّيءُ، متَانَةً: صلُب واشتدّ، وقَوِيَ، فهو متين ومِتَان.

والمتن في اصطلاح المؤلفين: واضع أصل الكتاب، وهو خلاف الشارح، والمتن: الظَّهْرُ، ومتن الكتاب: الأصل الذي يُشْرح". (1)

ب/ اصطلاحًا:

التعريف بالمتن يقودنا إلى التّفريق بين هذا المصطلح وبين مصطلحات كل من الشّرح والحاشية والتّقرير.

فمصطلح المتن يطلق على مبادئ فن من فنون جمعت في رسائل صغيرة، طابعها الاختصار، بعيدة عن الاستطراد، والتفصيل، والشّواهد، والأمثلة إلّا ما تقتضيه الضرورة.

أمّا مصطلح" الشّرح" فهو عمل يتطلب توضيح ما أشكل من المتون، وتفصيل ما أجمل منها، وهو يتراوح بين الطّول والقصر والسّهولة والعسر.

أمّا مصطلح" الحاشية" فهو شروحات مطوّلة اقتضتها ظاهرة انتشار المتون والشّروح وتهدف إلى حل ما أشكل من الشّرح، وتيسير ما صعب فيه، واستدراك ما فاته، والتّنبيه على الخطأ، والإضافة القيمة، وزيادة الأمثلة والشّواهد.

وأمّا مصطلح "التّقرير" فهو بمثابة هوامش كان يسجلها العلماء والمصنفون على أطراف نسخهم تضم خواطر وأفكار حول موضوع معين أو مواضيع متعددة، وذلك أثناء قيامهم بالتّدريس من الشّروح والحواشي.

وصيغت المتون نثرًا كما صيغت نظمًا، وقد اشتهرت هذه المتون النثرية في تاريخ العلوم عامة، وفي تاريخ النّحو بخاصة، وهي متون اعتمدها الدّارسون جيلا بعد جيل يشرحونها ويعلّمونها.

ثانيًا: أسباب ظهور المتون والشّروح والحواشي والتّقريرات.

ظهر هذا النّوع من التّأليف وتطور وكثر خاصة في عصري المماليك والعثمانيين لدوافع منها:

1- الرّغبة الملحة في التّسهيل، ليمكن تعلم القواعد وتيسير حفظها واستيعابها، فجاءت المتون مختصرة ومقتصرة على الأسس العامة. ضبط أصول العلم بدقة وإحكام، ويكون ذلك بجمع مادّته ولمّ شملها بعبارات موجزة جامعة دقيقة يستطيع الدّارس استيعابها بأقصر طريق وأقلّ زمان.

---

(1) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، ص: 571، 572.

2- حرص علماء هذه العصور ولاسيما في عصر المماليك والعثمانيين اللذين كثرت فيهما هذا النّوع من التأليف، لاستدراك الضائع من الكتب الّتي أحرقت في بغداد في أيام " هولاكو" وبعد نكسة الأندلس.

3- هدف المتون هو حفظ أصول العلوم، وتيسير تعليمها.

ثالثًا: أشهر علماء المتون المنثورة:

لعلّ البداية الفعلية لأول متن نحوي منثور مختصر كان في القرن الثّاني للهجرة، وكان خلف الأحمر البصري(180هـ) أوّل من كتب مقدّمة أو متنًا منثورا حين ألف كتابه الوجيز" مقدّمة في النّحو.

ثم توالت بعده ظاهرة تأليف المتون، وسنكتفي بعرض بعض أسمائها وأعلامها، منهم:

- أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي(ت225هـ)، له متن في النّحو بعنوان" المقدّمة"، وأطلق عليه بعضهم" مختصر نحو المتعلّمين"
- أبو علي أحمد بن جعفر الدينوري(ت289هـ)، له مختصر" المهذب"، تحاشي فيه الاختلافات، مكتفيا فيه بمذهب البصريين.
- أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان (ت299هـ)، ترك متنًا نحويا موسومًا بـ "الموفقي في النّحو".
- أبو جعفر النّحاس(ت38هـ) صاحب كتاب "التّفاحة"، يتميز بصغر الحجم.
- أبو الحسن أحمد بن فارس (ت395هـ)، له مقدّمة في النّحو.
- ابن بابشاد النّحوي(ت469هـ)، له أيضا مقدّمة في النّحو.
- أبو الحسن علي بن فضال المجاشعي(ت479هـ)، له أيضا مقدّمة نحوية.
- أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي(ت607هـ)، له مقدّمة "الجزولية" التي تسمى بـ "القانون". وغير هؤلاء كثر.

كما كثر التّصنيف في المتون النّحوية وشرحها في عصر المماليك، وأشهر ما ألف في هذا العصر:

- "الكافية" لابن الحاجب(ت646هـ).
- "المقدّمة الآجرومية" المشهورة لأبي عبد اللّه محمد بن داود الصّنهاجي المعروف بـ"ابن آجروم" (ت723هـ).
- "المقدّمة الأزهرية" لخالد الأزهري (ت905هـ).
- "الجمل" لأبي القاسم الزّجاجي (ت339هـ)، تحاشى الخلاف وكثرة التّعليلات.
- "الجمل في النّحو" لعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ).

ومع تطور هذا النّوع من التّصنيف ظهر في وقت متأخر نوع يتميّز بـ:

– البحث في موضوع واحد أو مسألة واحدة بإيجاز، ويمثله على سبيل الذّكر كتابا "الشّذا في أحكام كذا" لأبي حيان الأندلسي (ت745هـ)، و"أحكام(كل) وما تدل عليه" لتقي الدّين السّبكي (ت756هـ).

– التأليف على شكل إجابات على أسئلة نحوية، وخير من يمثل ذلك كتاب" الأجوبة المرضية عن الأسئلة النّحوية" للراعي الأندلسي (ت853هـ)

– شرح بعض المؤلفين لمتونهم، منهم ابن هشام الأنصاري في شرحه على متني "قطر الندى" و"شذور الذهب"، وخالد الأزهري في شرحه لمقدمته "الأزهرية".

قائمة المصادر والمراجع:

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: الكتب التراثية:

1-الأعلم الشنتمري: (أبو الحجّاج يوسف بن سليمان بن عيسى الأعلم، ت: 476ه): النّكت في تفسير كتاب سيبويه، وتبيين الخفي من لفظه وشرح أبياته وغريبه، دراسة وتحقيق: رشيد بلحبيب، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1999.

2-ابن الأنباري: (أبو البركات عبد الرحمان كمال الدين بن محمد الأنباري، ت: 577ه): الإنصاف في مسائل الخلاف، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د. ط)، دار الطلائع، القاهرة، مصر، 2005.

3-البغدادي (عبد القادر بن عمر البغدادي، ت: 1093ه): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1998.

4-الزبيدي: (أبو بكر الحسن محمد بن الحسن الزبيدي): طبقات النّحويين واللّغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 1973.

5-ابن سلّام الجمحي: (محمد بن سلّام الجمحي، ت: 231ه): طبقات الشّعراء، (د. تح)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2001.

6-سيبويه:(أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ت: 180ه): الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، (د.س).

7-السيوطي (جلال الدين السيوطي، ت:911ه): الاقتراح في علم أصول النحو، ضبط وتعليق: عبد الحكيم عطية، دار البيروني، (د. ب)، ط2، .2006

8-السيوطي: الأشباه والنظائر، مراجعة وتقديم: فايز ترحيني، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت، لبنان، 1996.

9-السيوطي: بغية الوعاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي، (د.ب)، ط1، 1964

10-ابن الطيب اللغوي (أبو عبد الله محمد بن الطيّب، ت: 1170ه): فيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح، تح: محمود يوسف فجّال، دار البحوث، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2000.

11-**ابن مضاء القرطبي**: الرّد على النحاة، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، (د. س).

12–المقري: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري، ت: 1041هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1968.

13–ابن النديم: (محمد بن إسحاق النديم، ت:385هـ): الفهرست، تح: مصطفى الشويمي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1985.

ثانيا: الكتب الحديثة:

14–إبراهيم السامرائي: المدارس النحوية: أسطورة وواقع، دار الفكر، الإسكندرية، مصر، ط1، 1987.

15–أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2005.

16–أحمد عمر مختار: البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط4، 1982.

17–حسام أحمد قاسم: الأسس المنهجية للنحو العربي: "دراسة في كتب إعراب القرآن"، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1، 2007.

18–حسن خميس الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 2000.

19–خديجة الحديثي: الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، مطابع مقهوي، الكويت، ط1974.

20–خديجة الحديثي: المدارس النحوية، دار الأمل، إربد، الأردن، ط3، 2001.

21–سيّد رزق الطويل: الخلاف بين النحويين، دار الفيصلية، ط1، مكة المكرمة، السعودية، 1985.

22–شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط7، (د.س).

23–عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية، تونس، ط1987.

24–عبد القادر رحيم الهيتي: خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط2، 1993.

25–عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث "بحث في المنهج"، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1979.

26–علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، دار غريب، القاهرة، مصر، ط1، 2006.

27–علي أبو المكارم: تقويم الفكر النحوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1975.

28-علي أبو المكارم: الحذف والتقدير في النحو العربي، دار غريب، القاهرة، مصر، ط2008.
29-محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط1، 1980.
30-محمد سالم صالح: أصول النحو "دراسة في فكر الأنباري"، دار السلام، القاهرة، مصرن ط1، 2006.
31-محمد عيد: الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار القلم العربي، (د. ط)، حلب، سوريا.
32-مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في اللغة والنحو، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1986.
33-نوري المسلاتي: أسباب اختلاف النحاة من خلال كتاب الإنصاف لابن الأنباري، دار ابن حزم، بنغازي، ليبيا، ط1، 2010.
34-هادي نهر: اللسانيات الاجتماعية عند العرب، دار دروب، عمان، الأردن، ط2011.
35-ياسين أبو الهيجاء: مظاهر التجديد لدى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2003.

ثالثا: المعجمات:

36-أبو بكر الرازي:(محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ت: 660هـ): مختار الصحاح، تح: سعيد محمود عقيل، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2001.
37-الشريف الجرجاني: (علي بن محمد السيّد الشريف الجرجاني، ت: 816): التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، (د. ط)، .2004
38-الراغب الأصفهاني: (أبو القاسم حسين بن أحمد، ت: 502هـ): معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: يوسف الشيخ محمود البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، .2006
39-ابن فارس: (أبو الحسين أحمد بن فارس، ت:395هـ): مقاييس اللغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د. ط)،2001.

40-مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوجيز، المطابع الأميرية، مصر، ط1998.

41-ابن منظور: (محمد بن مكرم بن علي، ت: 711هـ): لسان العرب، (د. تح)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1994.

\

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

1. مفاهيم تأسيسية: المذهب، الاتجاه، المدرسة	9_2
2. أسباب ظهور المدارس النحوية: السياسية، المعرفية، المذهبية	16_11
3-مصادر المدارس النحوية: القرآن، الشعر	25-18
4-مناهج المدارس النحوية العربية القديمة	38-27
5-المدارس النحوية في المشرق والمغرب العربيين: التقسيم الجغرافي والسياسي	44 -40
6- المدرسة البصرية:منهجها وأعلامها	57 -46
7- مدرسة الكوفة: منهجها، وأعلامها	68 -59
8- المدرسة البغدادية وأعلامها	73 -70
9- الاختلاف النحوي بين مدارس النحو1	81-75
10- الاختلاف النحوي بين مدارس النحو 2	87 -83
11- المدرسة النحوية الأندلسية والمغربية 1	93-89
12-المدرسة النحوية المغربية والأندلسية 2	98- 95
13- الاختلافات النحوية في المنظومات 1	103 -100
14-الاختلافات النحوية في المتون 2	107 -105
قائمة المصادر والمراجع	112 -109
فهرس الموضوعات	114